البَابُ الخَامِسُ

القِصَصُ والمواعِظُ والرَّقائقُ

أ- تمهيد لغوي

تتَّفقُ هذه الأجناس الأدبيةُ في الجوهر الفكريِّ، وتفترق في المظهر الفني. ولاتِّفاقها الجوهري جمعناها في باب واحد، ولافتراقها المظهري أفردنا كلًّا منها في فصل، ومعانيها اللغوية والاصطلاحية تسوِّغ ما فعلنا من جمع وفصل.

١- القَصُّ والقِصَّة في اللغة والاصطلاح

معنى القَصِّ في اللغة التعقُّبُ. ذكر هذا الأصلَ أحمدُ بنُ فارس في معجمه مقاييس اللغة، فقال[١]: «القافُ والصاد أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تتبُّع الشيءِ، من ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثر إذا تتبَّعْتَه». وقال ابنُ منظور[٢]: «قصصتُ الشيءَ إذا تتبعتَ أثره شيئاً بعد شيء. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ١١]. وقال أميةُ بن أبي الصلت:

قالتْ لأختٍ له: قُصِّيه عن جُنُبٍ وكيف يقفو بلا سَهْلٍ ولا جَدَدِ؟

قال الأزهريُّ: القصُّ اتباع الأثر... وقصّ آثارهم يقصُّها قصّاً وقصصاً،

---

(١) ٥/ ١١.

(٢) لسان العرب/ قصص.

وتقصَّصها تتبَّعها بالليل، وقيل: هو تتبُّع الأثر أيَّ وقت كان. قال تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٤]. ولمَّا كانت دلالاتُ الألفاظ تتطوَّرُ من التعبير عن المحسوس إلى التعبير عن المجرَّد، فقد انتقل معنى الكلمة من تتبُّع الأثر إلى تتبُّع الخبر، وبهذا الانتقال اكتسبتِ الكلمةُ معناها الاصطلاحيَّ. جاء في لسان العرب[١]: «القِصَّةُ الخبرُ، وهو القَصَص، وقصَّ عليَّ خبَره يقصُّه قصّاً وقَصَصاً. والقَصَصُ بالفتح الخبرُ، والقِصص بكسر القاف: جمعُ القِصَّة التي تكتب».

٢- الوعظ والمواعظ

لم تتوسَّع المعجماتُ في تفسير الوَعْظ والمواعظ توسُّعها في تفسير القصِّ. فكلُّ ما قاله أَحمدُ بن فارس في مقاييسه[٢] [وعظ] هو: «الواو والعين والظاءُ: كلمةٌ واحدةٌ. فالوَعْظ: التخويفُ، والعِظةُ: الاسمُ منه. قال الخليل: هو التذكيرُ بالخير، وما يرقُّ له قلبهُ». وقال ابن منظور في لسانِ العرب[٣]: «الوعظُ والعِظةُ والعَظة والمَوْعظةُ: النصحُ، والتذكيرُ بالعواقب. قال ابنُ سيده: هو تذكيرُك للإنسان بما يُلِيِّنُ قلبَه من ثواب وعقاب».

هذا جُلُّ ما ورد في المعجمات، ومَنْ أجدبَ انتجع. ولهذا انتجعْنا كتابَ الله وسنة نبيه ﷺ لعلَّنا نجدُ فيهما ما يُغنينا عن المُعْجمات، أو ما يكمِّل نقصها.

في القرآن الكريم من جذور الكلمة ومشتقاتها بضعٌ وعشرون كلمةً، وإذا نظرتَ فيما تفترق فيه قلت: إن لكل كلمة معنى يتحدَّد بأمرين: الصيغةِ الصرفية، والموضعِ الذي ترد فيه. لكنها بعد أن تختلف تعود إلى الائتلاف لأنها من أصل واحد. فهي تارةً تدلُّ على إرشاد الناس إلى سُبُل الخير كقوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ٦٦]. وتشفع تارةً أخرى سُبُلَ الخير بأساليب التوجيه التربويّ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤] وتعني تارةً ثالثة الحكمةَ والهدايةَ بصورة

(١) لسان العرب/ قصص.
(٢) ٦/ ١٢٦.
(٣) وعظ.

عامة نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٥٧] وفي موضع رابع قد تعني الزجرَ والتحذير، نحو: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ١١/ ٤٦]. وربما أضافت إلى الزجر ما هو أقسى منه كالاعتبار بما أصاب الكفَّار من عقاب نحو: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٦].

ومن الأحاديث النبوية: «لأجعلنك عظة» أي موعظة وعبرة لغيرك[١].

ومنها: كَفَى بالدهر واعظاً وبالموت مفرِّقاً[٢].

ومنها: وعَظَنا رسولُ الله موعظة وجلت منها القلوب[٣].

ومنها: «يأتي على الناس زمانٌ، يُسْتَحلُّ فيه الربا بالبيع والقتلُ بالموعظة» أن يُقتل البريءُ ليتَّعظ به المريبُ[١].

وبعدُ... فإذا خطر لك أن تجعل الموعظةَ مُصْطلحاً أدبيّاً كالقصة والخطبة والمثل، وأن تضع للمواعظ تعريفاً يحدِّدُها، فاجمع عناصر التعريف ممَّا اشتمل عليه القرآن والحديث من المعاني كأن تقول: المواعظُ نصائحُ حكيمة تذكِّر الناسَ القيمَ والشيمَ، وترشدهم إلى الخير، وتُنَشِّئُهم على المكارم، وتردعهم عن الضلال، وتُحذِّرهم سوءَ المُنْقَلَب، وتخوِّفهم العقابَ يوم الحساب، بأسلوبٍ بليغ، وعاطفةٍ حارّة.

٣- الرقائق

قال ابنُ منظور[٤]: «الرقيقُ نقيضُ الغليظ والثخين. والرِّقةُ ضِدُّ الغِلَظ. رقَّ يرِقُّ رِقَّةً، فهو رقيقٌ ورُقاق. وأَرَقَّهُ ورقَّقَه، والأُنْثى رقيقةٌ ورُقاقة.. والجمعُ رقاق ورقائق».

وقال أيضاً: «والرقةُ مصدر الرقيق عامٌّ في كلّ شيء، حتى يقال: فلانٌ رقيقُ الدين... ومنه الحديث: أهلُ اليمن هم أرقُّ قلوباً، أي أَلْيَنُ، وأَقْبَلُ

(١) لسان العرب/ وعظ.
(٢) الجامع الصغير ٢/ ٦٩٩ حديث ضعيف.
(٣) رياض الصالحين/ ٢٥٢.
(٤) اللسان/ رقق.

للموعظة. والمراد بالرقة ضدُّ القسوة والشدة، وترقَّقَتْهُ الجاريةُ: فتنته حتى رقّ أي ضَعُفَ صبره... وترقيق الكلام: تحسينه».

ومن ينتجع المعجمات الأخرى، فلن يظفر منها بطائل، فهي تنزعُ عن قوس (لسان العرب)، ولا تضيفُ إلى ما قال شيئاً ذا بال. فيتراءى له أن يلتمس طَلِبَتَه من الكتاب والسنة لكي يعرف الرقائق على ضوء ما ورد فيهما. فماذا ورد؟

لم نظفر بعد البحث في كتاب الله بغير لفظٍ واحد، صيغ من الراء والقاف، وهو رقّ، ورد في قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ وفُسِّر: بأنه جلدٌ رقيق يكتب فيه. ومعناه لا يتَّصل من قريب أو بعيد بما نحن فيه.

أما الحديث الشريف فقد وقفناك على ما ذكَرَ منه ابنُ منظور في لسان العرب، ونضيفُ إليه حديثاً شديد الصلة بما نقصد إليه من توضيحٍ، قد يساعدنا على أن نشفع مُصْطلحَ الرقائق بتعريف مقبول، وإليك نصَّ الحديث كما ورد في صحيح مسلم[1]:

«عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعُه قيل له في الصلاة؟ فقال: مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس. فقالت عائشةُ رضي الله عنها: إن أبا بكر رجلٌ رقيق، إذا قرأ القرآن غَلَبَه البكاء».

كانت الرقةُ والحِلْم، كما يُفْهم من كلام عائشة، طبعاً وسجيّةً في الصدِّيق، كما كانت الشدَّة والحزم طبعاً وسجية في الفاروق. فإذا أضفْتَ إلى ما فُطر عليه أبو بكر من لين يُجْري دَمْعَه، ما في القرآن من بيانٍ وجمال تتصدَّعُ منهما الجبال، أدركت ما قصَدَتْ إليه أمُّ المؤمنين من وصف أبيها بالرقة. إن رقته لم تكن خَوَراً في النفس، ولا وَهْناً في الجسم، وإنَّما هي إيمانٌ عميق، تمثَّل خَفَراً بين يدي الله، وخُشوعاً في الطاعة له، وانصياعاً لأوامره ونواهيه. والرقائقُ لا ترمي إلى أكثر من ترقيق الغليظ، وتليينِ الجاسي، وتخضيعِ الكنود، وتطويع العنود. إذا قَبَسها صاحبُها من القرآن قبس ما فيه ذكرٌ للحساب والعذاب، وإذا التمسها في الحديث التمس ما يُزَهِّد في الدنيا، ويُرَغِّب في الآخرة، وإذا استعارها من حِكم الحكماء لم يستعِرْ ما يدعو إلى العنف والعنفوان، أو يحرِّض على الجماح والطماح، بل استعار مايدعو إلى التواضع والتسامح.

---

(١) ١/١٨٢.

فالرقائق على هذا الأساس، قد تستوحي من القصص، غير أن القصصَ تنطوي على أحداث وأشخاص، والرقائقُ تعتصر من الأحداث العِبرة، وتستلهمُ من الأشخاص الدَّماثة. وقد تلتقي بالمواعظ، لكنَّ المواعظَ أعمُّ منها، لأن الموعظةَ قد تنصحُ بالحزم،كما تنصح بالحلم. من كلِّ ما سبق نستنبط أن الرقائق مجموعةٌ من الأقوال الحكيمة، تصوِّرُ تواضع الإنسان ودماثته، وتدعوه إلى الخشوع لله، وإلى الانقياد لقضائه وقدره، وإلى الزهد في متاع الحياة الدنيا، بأسلوب عذبٍ شجيّ، وعاطفةٍ إنسانية حانية.

ب- القَصُّ

١- تمهيد

في الجزء الرابع من هذه السلسلة - وهو النثرُ في عصر النبوة والخلافة الراشدة - ذكرنا أن ثلاثة من القصَّاص الأوائل تنازعوا شرف الريادة في القصّ الديني، وهم: الأسودُ بن سريع، وعُبيدُ بن عمير، وتميم بن أوس الداري. أمّا الأسود فبين الأحاديث الشريفة حديث يعزو إليه البدء بالقصّ، ويشفع العزوَ بما يدلُّ على أن النبيَّ ﷺ بارك القصَّ، ونوَّه بما فيه من نفع. وأمّا عبيد فإن شرف الريادة صار إليه عن طريق المؤرخين الذين ذكروا أنه كان البادئَ بالقصّ قبل سواه، ولم يشفعوا ما ذكروا بتنويه أو تسفيه. وفي سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الفاروق سمح لتميم بالقصّ بعد تردّد، وتردُّدهُ نجم عن خوفه من أن يكون القصُّ بدعة، وكل بدعة ضلالة.

ولك أن تأخذ بأيِّ الآراء شئت، وأيّاً كان الرأي الراجح لديك، فشرف الريادة يبقى معزوّاً إلى عصر النبوة، أو عصر الخلافة الراشدة. وليس بدعة أموية. ترى أفي التاريخ الأموي ما يؤيّد هذا العزو؟

٢- الأمويّون والقصُّ

في أخبار الخلفاء الأمويين خبران يختلفان من ناحية، ويأتلفان من ناحية، رواهما ابن عساكر: أحدهما عن معاويةَ بن أبي سفيان، ويدلُّ على استنكاره القص ما لم ترخص به الدولة، والثاني عن عبد الملك بن مروان، ويدلّ على

أن الأمويين هم الذين ابتدعوه على غير مثال. وإذا كان الأولُ يستنكر القصّ، والثاني يدعو إليه فإنهما يلتقيان في ملتقىً واحد، وهو أن القصّ بدعة أموية، لم يعرفها عصرُ النبوة والخلافة الراشدة. قال ابن عساكر[١]: قال عبدُ الله بن لُحَيّ: «حججتُ مع معاويةَ بن أبي سفيان، فلَمَّا قدمنا مكَّةَ أُخْبِر - يعني معاويةَ- بقاصٍّ يقصُّ على أهلِ مكة، مَوْلىً لبني مخزوم، فأرسل إليه معاوية، فقال: أأمِرتَ بالقصص؟ قال: لا. قال: فما حمَلك على أن تقصَّ بغير إذْن؟ قال: ننشرُ ممَّا عَلَّمناهُ الله عزّ وجلّ. فقال معاوية: لوكنتُ تقدمتُ إليك قبل مرَّتي هذه لقطعت منك طابقاً».

وقال ابن عساكر أيضاً[٢]: «بعثَ عبدُ الملك بن مروان إلى غضيف بن الحارث، فقال: يا أبا أسماء، إنَّا قد جمعنا الناسَ على أمرين. قال: وما هما؟ قال: رفعُ الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصصُ بعد الصُّبح والعصر. قال: أما إنهما أَمْثلُ بِدَعِكم عندي، ولستُ مُجيبَك إلى شيء منهما. قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّ النبيّ ﷺ قال: ما أحدث قومٌ بدعةً إلَّا رُفع مثلُها من السنة. فتمسُّك بسنة خيرٌ من إحداث بدعة».

لك أن تستنبط من الخبرين السابقين أموراً:

أوّلها أن الخلفاء الأمويين لم يكونوا سواءً في مواقفهم، فمنهم مَنْ عارض القصَّ، ومنهم من أقرَّ به، وحثَّ عليه.

والثاني أن القصَّ بدعةٌ أموية لم تظهر قبل أن يتولَّى معاويةُ الخلافة، وأنها قُيِّدت بموافقته ومراقبته حينما ظهرت.

والثالث أن أهل الورع رفضوا القصَّ من باب التأثم، خوفاً من أن يكون بدعةً مكروهة، ينقضون بها سنة.

وربما كان وراءه - وهذا هو الرابع - مقصدٌ سياسيٌّ، رمى عبدُ الملك إلى تحقيقه، وهو أن يكون القصُّ قد ابتدع لغرضٍ خفيّ، وأن يُجْعَل بتوجيه أموي وسيلةً من وسائل الدعوة إلى بني أمية. والخبرُ التالي ينمُّ على هذا القصد؛ قال

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٣/ ٢٦٢.
(٢) المصدر السابق ٢٠/ ٢٠٦.

ابن عساكر[١]: «رُويَ عن الجنيد بن عبد الرحمن أنه دخل دمشق أيامَ هشام بن عبد الملك. قال: صلَّيتُ الجمعةَ، ثم خرجتُ إلى باب الدرج، وإذا عليه شيخٌ، يقال له: أبو شيبة القاصُّ، يقصُّ على الناس. فرَغَّب فَرَغبْنا، وخوَّف فبَكَيْنا، ودعا فأمَّنَّا. فلمَّا انقضى حديثُه قال: اختموا مجلسنا بلعن أبي تُراب، فلعَنوا أبا ترابٍ، عليه السلام». ويظاهرُ هذا الخبرَ خبرٌ آخر ذكره الرافعيّ[٢]، خلاصتُه أن معاوية اتخذ قاصّاً، كان يجلس إليه متى انفتل من صلاة الصبح، وأن هذا من دهاء معاوية في السياسة.

٣- أعلام القَصِّ في العصر الأموي[٣]

بعد رُوَّاد القصّ الثلاثة الذين تنازعوا قَصَبَ السَّبْق في عصر النبوة والخلافة الراشدة، وهم: الأسودُ بن سريع، وعُبَيْد بن عُمَيْر، وتميمُ بن أوس أخذ القصُّ الديني ينتشر ويزدهرُ، وتروج سوقُه في العراق والشام، ويشارك فيه العُبَّاد والزهَّاد، وأهلُ النسك والورع من الرجال والنساء، والعرب وَالموالي. وكثر أعلامُه، وشقَّ علينا أن نحيط بهم جميعاً، فتخيَّرنا أشهرهم، وذكرناهم وَفْقَ سنوات الوفيات.

من أوائلهم زيدُ بن صُوحانَ العَبْدي [قتل: ٣٦هـ]، وهو تابعيٌّ جليلٌ من أهل الكوفة، كان من الفرسان الشجعان في الفتوح، قُطعت شِمالُه يوم نهاوند، وحارب مع عليٍّ يوم الجمل، وقاتل حتى قتل.

ومن متقدِّميهم عامرُ بن عبد الله العنبريّ المشهور بابن عبد قيس، كان- والقولُ لأبي نعيم - من عُبَّاد التابعين، وممن تلقَّوا القرآن من أبي موسى الأشعري، حين قدم البصرة،وعلّم أهلها القرآن. ونسك وتعبَّد، ومات في بيت المقدس [سنة: ٥٥هـ].

وربيعةُ بن عمرو الجرشي، كان فقيه الناس في خلافة معاوية، وكان يقول

(١) المصدر السابق ٦/ ١١٧.
(٢) تاريخ آداب العرب ١/ ٣٨٠.
(٣) انظر: البيان والتبيين ١/ ٢٩٠ - ٣٥٣- ٣٦٨، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٤٧٤ وما بعد، وتاريخ الطبري ٩/ ٦٧، وتاريخ آداب العرب١/ ٣٧٩، وما بعد، والعصر الإسلامي/ ٤٣٥ وما بعد.

لمن يقصُّ عليهم[١]: «إن الله جعل الخير من أحدكم كشراك نعله، وجعل الشرَّ منه مدَّ البصر». توفي [سنة: ٦٤هـ]. وبعد سنة من وفاته توفي قاصّ مشهور آخر، وهو عبد الله بن عمرو بن العاص [ت: ٦٥هـ].

وشهد العقد السابع من القرن الأول وفاة ثلاثة من أعلام القصِّ الديني، صفوان بن محرز [ت: ٧٤هـ] الذي وُصف بأنه عابد واعظ قانت لله، ثقة في كلّ ما يروي ويقصّ. وصلة بن أشيم [ت: ٧٥هـ] وهو زاهد عابد قدوة للناس في الورع والتقوى. وصالح بن المسرِّح الذي حدثناك عنه في حديثنا عن الخوارج وخطبائهم وفصحائهم، وكان أتباعه يخاطبونه بأمير المؤمنين، وهو تميميُّ النسب صُفْريُّ المذهب، ظلّ يقاتلُ مَنْ لم يَرَ رأي الخوارج حتى قتل [سنة ٧٦هـ].

وفي مطلع العقد الثامن توفي [سنة٨٠هـ] عائذُ بن عبد الله الخولاني، وكان قد جمع بين القصِّ والوعظ، وهو تابعيٌّ تضلَّع من الفقه، وتولَّى القضاء في دمشق. وشهد له الذهبيُّ بأنه كان عالم أهل الشام في زمانه.

وتوفّي في العقد الأخير من القرن الأول قُصَّاص كثرٌ، أشهرُهم سعيدُ بن المسيّب المخزومي [ت: ٩٤هـ] كان في زمانه سيِّدَ التابعين، وإمامَ المدينة في الفقه والحديث والتقشف والورع. ثم سعيدُ بنُ جُبَيْر [قتل سنة: ٩٥هـ] الأسديُّ بالولاء، الكوفيُّ الموطن، الحبشيُّ الأصل، وتلميذُ عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر. كان زاهداً مقرئاً مفسِّراً، وكان ابنُ عباس إذا استفتاه أحدٌ من أهل الكوفة يقول: «أتسألونني وفيكم ابنُ دهماء؟ يعني سعيداً».

ومع ازدياد الترف والسرف في الأسرة الأموية، وشيوع البذخ والتبذير بين الأغنياء، وتمادي الفُسّاق في المجون أخذ القصُّ الديني يزدهرُ ليعيد التوازن الاجتماعي إلى حياة الناس، وراح أربابُ القصِّ الديني يحذّرون المُتْرفين من الانغماس في الشهوات، ويدعونهم إلى الزهد، ويبغضون إليهم زينةَ الحياة الدنيا، وانتشر القُصَّاص في الأمصار، نهايةَ القرن الأول، وتوفي كثير منهم في العقد الأول من القرن الثاني. أبرز هؤلاء القُصَّاص مورق العجلي [ت: ١٠٠هـ] وكان ثقة عابداً روى عن كثير من الصحابة. ومعاذة بنت عبد الله العدوية [ت: ١٠١هـ] كانت من ربات الفصاحة في البصرة، زهدت ونسكت، وألفت الصيام

(١) مختصر تاريخ دمشق ٨/ ٢٨٠.

والقيام، وكانت تقول: «عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد في القبور»، وكان زوجها صلة بن أشيم زاهداً قاصّاً من طبقتها في العبادة والتقوى.

ومنهم عامرُ بن شراحيل الشعبيُّ الحميريّ [ت: ١٠٣هـ] كان فقيهاً شاعراً محدِّثاً، استقضاه عمرُ بن عبد العزيز لورعه. وعكرمةُ بن عبدالله البربريّ المدنيّ [ت: ١٠٥هـ] كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي وأجمعهم للأخبار، وأبرعهم في القصّ. وبكرُ بن عبد الله المزني [ت: ١٠٦هـ] الإمامُ القدوة الحجة الثقة. المشتغل بالقصِّ والوعظ.

وأبرز القُصَّاص من هذا الجيل عَلَمانْ، وهما: طاووسُ بن كَيْسان الخَوْلانيّ بالولاء [ت: ١٠٦هـ] والحسنُ بن يسار البصري التابعيّ [ت: ١١٠هـ]. أمَّا الأول فقد كان من أكبر التابعين المتقشفين، ومن حفظة الحديث الثقات ورواته، وممَّن وعظوا الأمراءَ والخلفاء بلا مصانعة. وأمَّا الثاني فقد كان إمام أهل البصرة في زمانه، وشيخَ العلماء والفصحاء، وأحدَ النجباء الذين أخذوا العلم عن عليّ بن أبي طالب، قيل: إن كلامه يشبه كلام الأنبياء، وقد وقاه الله أذى الحجَّاج وغيره من ظَلَمة الحُكَّام، على اشتداده عليهم في القول.

وبعد هؤلاء توفي في العقد الثاني من القرن الثاني وَهْبُ بن منبِّه الفارسيُّ الأصل، الصنعانيُّ النسبة، الواسعُ الاطلاع على أساطير الأولين عامة، وعلى الإسرائيليات خاصّة. قيل إنه يقول بقول القدرية، ثم تراجع عن رأيه. قتله يوسف بن عمر [سنة ١١٤هـ] ومن كلامه: إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكوة.

وفي بداية العقد الثالث من القرن الثاني توفي واصلُ بن عطاء المخزومي بالولاء [سنة ١٣١هـ] وكان من أئمة البلغاء، وكبار المتكلمين، وهو رأس المعتزلة. وبوفاته يحسن بنا أن نمسك عن ذكر من ظهروا في زمانه، وماتوا بعده أي في العصر العباسي. غير أن ذهاب دولة ومجيء أخرى لا يعنيان أن من كانوا يحيون في العصر الأموي، وشهدوا العصر العباسي عباسيّون، لأن القسم الأكبر من حياتهم، وتكوينهم الفكري ممّا أخذوه من العصر الأموي، لا مما أفرغوه في العصر العباسي.

ومن هؤلاء خالدُ بن صفوان التميمي المنقري [ت: ١٣٣هـ] كان من فصحاء العرب، عاش في البصرة، وفيها قصَّ وَوَعظ، ولعمق أفكاره وحلاوة

بيانه جُمع كلامُه في كتاب. تليه رابعةُ بنتُ إسماعيل العدوية الزاهدة العابدة [ت: ١٣٥هـ]، فأبانُ بن أبي عياش [ت: ١٣٨هـ]، وكان يروي عن أنس وعن سعيد بن جبير.

ومن القُصَّاص الذين امتدَّ بهم العمر إلى العقد الأول أو الثاني من العصر العباسيّ، فَضمَّختهم الخَضْرمةُ الفضلُ بن عيسى الرقاشي [ت: ١٤٠هـ] كان من قُصّاص البصرة ووُعّاظها، عُرف بإتقان الخطابة والبراعة في علم الكلام وبالسجع في السرد القصصي لجذب الأسماع إليه.

ومن هؤلاء الذين طاف بهم طائف الخضرمة سلمة بن دينار المخزومي بالولاء [ت: ١٤٠هـ] المشهور بكنيته ولقبه أبي حازم الأعرج. وكنا قد درسنا رسالة له دراسة مفصلة، واشتهر بأنه كان عالم المدينة وقاضيها وشيخها، وأحد الزاهدين في الحياة، المعرضين عن صحبة الحكام.

وآخرُ القُصَّاص الأعلام[1] الذين تخيَّرناهم موسى بن سيَّار الأسواريّ [ت: ١٥٠هـ] تفرَّد بنمط من القصّ والوعظ والتدريس والتفسير جعله من أعاجيب العلماء والبيان في زمانه، كان يُحسن الفارسية إحسانَ العربية، إذا جلس قعد العربُ عن يمينه والفرس عن يساره، فإذا قرأ الآية من كتاب الله فسّرها للعرب بالعربية وللفرس بالفارسية، فلا يُدْرَى بأيِّ اللسانين هو أَبْيَنُ.

وربما كان بين مَنْ أعرضنا عن ذكرهم قُصَّاصٌ يرقون إلى طبقة من ذكرنا أو يبزون بعضهم. ومن الذين أغفلناهم، وحقُّهم الذكر: إبراهيم التيميُّ الكوفي، ومسلمُ بن جندب قاصُّ مسجد المدينة، وذر بن عبد الله وكان يقصُّ في جند ابن الأشعث، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الديار الشامية، وابن شبرمة، ومحمد بن واسع الأزدي البصري واعظ الجند في فتوح قتيبة بن مسلم، وأيوب السختياني، وشبيبُ بن شيبة، وعبدُ الله بن شداد، وعبد الله بنُ طاووس بن كيسان.

٤- أنواع القصص وأغراضها

ارتبط القصُّ بالوعظ، وسار في ركابه، لكنَّه كاد يسبقُه في بلوغه مرماه. فالوعظُ أدبٌ دينيٌّ، يسلك فيه الوُعَّاظ مسلكَ الأمر والنهي، والحضّ والزجر،

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٦٨.

والترغيب في الخير والثواب، والترهيب من الشر والعقاب، والتشويق إلى الجنة، والتخويف من النار. بأسلوب مباشر.أمَّا القصُّ الديني فقد كان يعبّر عن كلِّ هذه المعاني والمرامي المجرَّدة بأساليب حية، تتحرَّك فيها شخوصٌ وتتعقَّد أحداث، وتُحلَّل نفوس، وتتخلَّج مشاعر، ويُبث في تضاعيفها حوار، وينجم عن هذا الأسلوب المشوِّقِ انتفاعٌ بالفكرة، واستمتاعٌ بالسرد، وتهذيبٌ للأخلاق، وتزهيد في الدنيا، وتوجيه إلى الآخرة.

والقسمُ الأعظم من القصّ الديني يستمدُّ مادته من حَيوات الأنبياء، وأخبار الصديقين، فيفصل ما أجمله القرآن وأوجزته السنة، مستعيناً على تأدية أغراضه بما في التوراة والإنجيل من تفصيل وبما شاع من إسرائيليات، تلقَّفها القُصَّاص، وأغنوا بها ما يقصُّون. وربَّما أضافوا إليها ما بلغهم من أساطير الأولين، وأخبار الملوك والأمم البائدة من عَرَب وفُرس وروم. غير أن الحظَّ الأَوْفى فيما كان القُصَّاص يقصُّون ذهبت به أنباء الأنبياء، ولا سيّما أنبياء بني إسرائيل. فما أبرز القصص التي كانت تجري من أفواه القُصّاص إلى آذان السامعين طوال العصر الأموي؟

أ) آدم وحواء

لم تشغل قصَّةٌ من القِصص عقولَ البشر كما شغلتها قصةُ الخلق، إذْ راح كلُّ شعب من الشعوب ينسجُ أسطورةً يحاولُ بها أن يفسِّر خلقَ الكون والإنسان على النحو الذي يوافق تصوُّره ومعتقده. وقبل أن نتحدَّث عن قصة آدم وحواء كما قصَّها قُصَّاص العصر الأموي نذكر ثلاثاً من الأساطير، نسجتها ثلاثٌ من الأمم، لكي تفتح بها سرَّ الوجود المغلق.

- «الأساس الذي بُنيت عليه عقيدةُ الهنود هو وحدةُ الوجود. وتفسيرُ هذه العقيدة كما ورد في تراثهم الديني هو أن الخالق انشقَّ زوجاً وزوجة، فشعر الزوجُ بالفراغ، فملأت الزوجة فراغه، وتمّ بذلك تناسلُ البشر. ثم قالت الزوجة: كيف استطاع غِشْياني بعد أن أخرجني من نفسه؟ فلأختفِ. واختفت في صورة بقرة، فانقلب الزوج ثوراً، وغَشيها، فولدت الماشية، وهكذا تم تنوع الخلق من الإنسان إلى النملة ممَّا يثبت وحدة الوجود»[1].

(١) الوجيز في قصة الحضارة ١/١١٦.

- «وفي تاريخ الصين أن (بان كو) كدح كدحاً مُضْنياً سنة (٢,٢٢٩,٠٠٠) قبل الميلاد، وهو يخلق العالم، فتصبَّب جبينه عرقاً، وسال عرقُه بحاراً، وصار صوتُه رعداً، ولحمه أرضاً، وآضت الحشرات المتعلقة به بشراً»[١].
- «وتقول أساطير اليابان: إن (إيزاناجي) وأخته (إيزانامي) - وهما من سلالة الآلهة - وقفا على جسر السماء، ثم غمسا في المحيط رمحاً، ورفعاه، فتقطَّرتْ منه (٤٢٢٣) قطرة، فأصبحت تلك القطرات جُزُر اليابان... ثم إنَّ ولدي الآلهة هذين تزوَّجا كالضفادع، ونَسَلا الشعب الياباني»[٢].

يُخيل إلينا أن وهب بن منبه الذي ذكر كُتَّاب التراجم أنه قرأ ثلاثة وسبعين كتاباً من الكتب الدينية القديمة لم يطلع على هذه الأساطير، أو اطَّلع عليها وأغفلها، لأنها لا توافق العقيدةَ الإسلامية. فكيف قصَّ قصة آدم وحوَّاء؟ أسردها كما وردت في سورة البقرة، أم أضاف إليها ما لم يرِدْ فيها. وإذا كان قد أضاف فمن أين اقتبس ما اقتبس؟

قال وهب بن منبه[٣]: «لما أسكنَ الله تعالى آدم وزوجته الجنة نهاه عن الشجرة، وكانت شجرةً غصونُها متشعبٌ بعضُها في بعض، وكان لها ثمر تأكلُه الملائكة، يخلدهم. وهي الثمرةُ التي نهى الله عنها آدم وزوجته. فلما أراد إبليس أن يستزلَّهما دخلَ في جوف الحية، وكان للحية أربعُ قوائم، كأنها بختية، من أحسن دابة خلقها الله تعالى. فلمَّا دخلت الجنةَ خرج من جوفها إبليسُ، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته. فجاءَ بها إلى حواء، فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها، وأطيبَ طعمَها، وأحسن لونها! فأخذت حواء، فأكلت منها، ثم ذهبت إلى آدم، فقالت: انظر إلى هذه الشجرة؛ ما أطيب ريحها وأطيب طعمها، وأحسن لونها! فأكل منها آدم، فبدت لهما سوءاتهُما، فدخل آدمُ في جوف الشجرة. فناداه ربُّه: يا آدمُ، أين أنت؟ قال: أنا هنا، يارب. قال: ألا تخرجُ؟ قال: أستحي منك يا ربّ. قال: ملعونةٌ الأرض التي خُلِقْتَ منها لعنةً حتى تتحول ثمارُها شَوْكاً. قال: ولم يكن في

(١) المرجع السابق ١/ ١٤١.
(٢) المرجع السابق ١/ ١٦٦.
(٣) تاريخ الطبري ١/ ٥٤.

الجنة ولا في الأرض شجرةٌ، كانت أفضلَ من الطَّلْح والسدر.ثم قال: ياحوّاءُ، أنت التي غررتِ عبدي، فإنك لا تحملين حملاً إلَّا حملته كرهاً، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفتِ على الموت مراراً. وقال للحية: أنت التي دخل الملعونُ في بطنك، حتى غرَّ عبدي. ملعونةٌ أنت لعنةً حتى تتحول قوائمك في بطنك. ولا يكنْ لك رزق إلا التراب. أنت عدوةُ بني آدم، وهم أعداؤك، حيث لقيت أحداً منهم أخذت بعقبه، وحيث لقيك شدخ رأسك. قيل لو هب: هل كانت الملائكة تأكل؟ قال: يفعل الله ما يشاء».

إذا أعدت النظر في القصة وجدت جوهرها وأحداثها وشخوصها الأساسية ومراميها الفكرية مستمدة من سورة البقرة. وعناصرُها القرآنية خلقُ آدم وحواء، وإسكانهُما الجنَّة، ونهيهُما عن الأكل من شجرة فيها، والوسوسةُ الشيطانية، ومخالفتُهما الأمرَ الإلهيَّ، وظهورُ سَوْءاتهما، والاستتارُ بورق الشجر.

أمَّا العناصرُ التي أضافها وَهْبٌ إلى القصة فهي اختفاءُ إبليس في جوف الحية، ومعاقبة الحية باللعن والمسخ، وبإلقاء العداوة بينها وبين البشر إلى الأبد. فمن أين أتى وهب بهذه العناصر، وأضافها إلى القصة؟يغلبُ على الظنّ أن وهبَ بنَ منبه اقتبس هذه العناصر من التوراة وشروحها، فأَنْتَ تستطيع أن تردَّ كثيراً منها إلى ما ورد في الأَصْحاح الثالث من سفر التَّكوين. وممَّا ورد فيه مطابقاً أو مقارباً لما ورد في قصة وهب: «فرأت المرأةُ أن الشجرةَ جيدةٌ للأكل، وأنها بهجةٌ للعيون، وأن الشجرة شهيةٌ للنظر، فأخذت من ثمرها، وأعطتْ رجلَها أيضاً معها، فأكل. فانفتحت أعينهُما، وعلما أنهما عُرْيانان، فخاطا أوراق تين، وصنعا لأنفسهما مآزرَ. وسمعا صوتَ الربِّ الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدمُ وامرأتهُ من وجه الربِّ في وسط شجر الجنة» وجاء في الأصحاح الثالث أيضاً: «فقال الربُّ الإلهُ للحية: لأنك فعلت هذا ملعونةٌ أنت... وأضعُ عداوة بينك وبين المرأةِ ونسلِها، وهو يسحقُ رأسك، وأنت تسحقينَ عقبه. وقال للمرأة: تكثيراً أكثِّرُ أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً».

إذا قرأت قصة وهب بعين الرضى قلت: إنه أراد أن يضيف إلى القصة القرآنية عناصر فنية مشوقة، تجذب السامع وتستثير خياله، وتكنفه بجو من الإدهاش. ثم سوَّغت صنيعه بحديث صحيح، أورده البخاري، ونصُّه: «بلِّغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً

فليتبوأ مقعده من النار». وإذا قرأتها بعين الورع أَتْبَعْتَ الحديثَ تعليقاً، يفصِّل القول فيما يذكرُ القُصَّاص والمفسِّرون عن بني إسرائيل، جاء فيه[١]: «ما نمي إلينا من أخبارهم، ففي تسويغ روايته عنهم تفصيل: فما جاء منها موافقاً لما في شرعنا صدَّقناه وجازت روايته. وما جاء مخالفاً لما في شرعنا كذَّبناه، وحرمت روايته إلَّا لبيان بطلانه. وما سكتَ عنه شرعُنا توقَّفْنا فيه، فلا نحكمُ عليه بصدقٍ ولا بكذب، وتجوزُ روايتهُ. وغالبُ ما يُرْوى من ذلك راجعٌ إلى القصص والأخبار، لا إلى العقائد والأحكام».

قد تقول - وقولُكَ حقٌّ -: إن ما ذكره وهبٌ من التوراة ذو صلة بالعقيدة، ولو سيق مساق القَصِّ. فالمسلمُ يؤمنُ بعالم الغيب كما وصفه القرآنُ الكريم، ولا يؤمنُ به كما صوَّرته أساطيرُ الهند والصين واليابان، ولا كما ذكره سفر التكوين. وحينما يسمع عامة الناس القصة السابقة، وقد تداخلت عناصِرها القرآنية والتوراتية، يصدِّقونها كاملة، ولا يستطيع أن يميز الإسرائيليَّ من القرآني إلَّا مَنْ أُوتيَ حظاً من المعرفة؛ كهذا الذي سأل وهباً: هل كان الملائكة يأكلون؟ ولو كان بينهم مَنْ أصاب نصيباً من علم الكلام والعقيدة والتفسير لسأل وهباً أسئلةً أخرى تحرجه. إن سؤال السائل نجمَ عن معارضة العقيدة الراسخة في نفس السامع لما أُلصق بالملائكة من سِمات البشر، والمسلمُ يؤمنُ أن الملائكة أرواحٌ نورانية، ليس لهم جسومٌ من لحم ودم، أو هم كما قال أبو البقاء الكفوي[٢]: «جواهر بسيطة معقولةٌ، مبرَّأة من الحلول في المواد» وإذا كانوا منزَّهين عن الحلول في المواد، فكيف يحلُّ فيهم الطعامُ، والطعامُ مادَّة؟

ومن قصص آدم وحواء قصة رواها سعيد بن جبير عن حمل حواء وولادتها، وإليك نصّ القصة[٣]: «لما حملت حواء في أول ولد ولدته حين أثقلت أتاها إبليس قبل أن تلد، فقال: يا حواء، ما هذا في بطنك؟ فقالت: ما أدري. فقال: من أين يخرج؛ أمن أنفك أو من عينك أو من أذنك؟ قالت: لا أدري. قال: أرأيت إن خرج سليماً أمطيعتي أنت فيما آمرك به؟ قالت: نعم.

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٥٣ ح (٢).
(٢) الكليات ٤/ ٢٧٢.
(٣) تاريخ الطبري ١/ ٧٤.

قال: سميه عبد الحارث، وقد كان إبليس لعنه الله يسمّى الحارث، ثم قالت بعد ذلك لآدم: أتاني آت في النوم، فقال لي كذا وكذا، فقال: إن ذلك الشيطان، فاحذريه، فإنه عدونا الذي أخرجنا من الجنة. ثم أتاها إبليس- لعنه الله- فأعاد عليها، فقالت: نعمْ. فلَمَّا وضعته أخرجه الله سليماً، فسمَّته الحارث. فهو قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٠] إلى قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٠].

أورد ابن كثير القصة في تفسيره، وعلَّق عليها بقوله: «هذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب» قال الزمخشريُّ في تفسير الآية نفسها على وجه آخر: «الخطاب لقريش... ويراد: هو الذي خلقكم من نفس قصي، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها. فلما آتاهما الله ما طلبا من الولد الصالح السويّ جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة: بعبد مَناف، وعبد العُزَّى، وعبد قصيّ، وعبد الدار». وسواءٌ أأرضاك الاقتباسُ من الإسرائيليات أم أَسْخَطَك، فأنت لا تستطيع أن تنكر الأثر العميق الذي تركته هذه القصص في ألسن القصَّاص، ونفوس السامعين. لقد وجد أربابُ القصّ فيها مرتعاً خَصْباً، فانتجعوه.

ب) الأنبياء والملوك ويوم القيامة

قبس أهل القصّ من الإسرائيليات كثيراً من أخبار الأنبياء والملوك، ونسجوا قصصاً حول يوم القيامة: فوهبُ بنُ منبِّه[١] قَبَس منها فصولاً من قصة يوسف عليه السلام، إذْ حدَّث جلساءه عن سجن يوسف، وذكر أن جبريل تمثل له بشراً سويّاً، وراح يحاوره ويهوِّن عليه مصابه، ويبشِّرُه بالفَرَج بعد الشدة.

ومجاهدُ بن جبر [ت: ١٠٤هـ][٢] روى عن ذي القرنين وبلقيس قِصَّةً خلاصتُها أن صاحبة مأرب استطاعت أن تتعرَّف ذا القرنين، وهومتنكِّرٌ بزي مسكين. وقالت له في خاتمة القصة: «والله لا تفارقني أو تكتبَ لي أماناً بملكي، أو أضربَ عنقك» فأذعن لها ذو القرنين، «وكتب لها أماناً بملكها، فلم ينجُ منه أحد غيرها».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٣/ ٣٨.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٨٢.

والشعبيُّ[١] قص على جلسائه أقصوصة عن سليمان والجانِّ، جاء فيها: «قالت الجنُّ: لئن وُلد لسليمانَ ذكرٌ لنلقينَّ منه مثلَ ما لقينا من أبيه، فتعالَوْا حتى نرصد أرحام نسائه، حتى لا يولد له. قال: فولد له غلام، فلم يأمن عليه الإنسَ ولا الجنَّ، فاسترضعه المزن يعني: السحاب. وكان يزيد في السنة كذا كذا، وفي الشهر كذا كذا، وفي الجمعة كذا كذا. قال: فلم يشعر إلَّا وقد وُضع على كرسيّه، وقد مات، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٤]».

وسعيدُ بن جبير روى قصة عن موت إبراهيم عليه السلام، فقال[٢]: «كان الله يبعث ملك الموت إلى الأنبياء عياناً، فبعثه إلى إبراهيم - عليه السلام - ليقبضه. فدخل دارَ إبراهيم في صورة شاب جميل، وكان إبراهيم رجلاً غيوراً. فلَمَّا دخل حملته الغيرةُ على أن قال له: يا عبدَ الله، من أدخلك داري؟ قال: أدخلنيها ربُّها. فعرفَ إبراهيم أن هذا الأمر حدث.. قال: يا إبراهيم، وإني أمرت بقبضِ روحك. قال: فأمهلني يا ملك الموت حتى يدخلَ إسحاق، فأمهله. فلمَّا دخل إسحاقُ قام إليه، فاعتنق كلُّ واحد منهما صاحبه. فرقَّ لهما ملك الموت، فرجع إلى ربّه، فقال: يارب رأيتُ خليلكَ فزع من الموت. قال: يا ملك الموت، فأتِ خليلي في منامه، فاقبضْه. قال: فأتاهُ في منامه، فقَبَضَه».

وربّما أعمل القُصَّاصُ خيالَهم في نسج قِصص، لا علاقة لها بالإسرائيليات، لكي يفسِّروا بها بعض الآيات تفسيراً حيّاً، يرسِّخُ معانيها في أذهان الجماهير، وينقلُها من التجريد إلى الحسِّ، ويقوِّي بهذا التفسير الحسيّ إيمان المسلمين بالبعث والحساب، ويزهِّدهم في الحياة الدنيا.

كان ربيعةُ بن عمرو الجرشيّ يقصُّ زمنَ معاوية، فيصوِّر في بعض ما يقصُّ يوم القيامة. وفي واحدة من قصصه يصنِّف الناسَ طبقات، ويقيمُ التصنيفَ في الحشر والحساب على أساسِ التقوى والاجتهاد في العبادة، فيقول[٣]: «يجمعُ الله الخلائقَ يوم القيامة في صعيد واحد، فيكونون ما شاء الله أن

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ١٢٦.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٧٣.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٢٨٢.

يكونوا، فينادي مُناد: سيعلمُ أهل الجمع لمن العزُّ اليومَ والكرمُ، ليقمْ الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ٣٢/١٦] فيقومون، وهم قلة. ثمّ يلبثُ ما شاء الله أن يلبث، ثم يعود، فينادي: سيعلمُ أهل الجمع لمن العزُّ اليوم والكرم، ليقم الذين ﴿. . .لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٢٤/٣٧] حتى يفرغ من الآية، فيقومون، وهم أكثر من الأولين. ثمّ يلبثُ ما شاء الله أن يلبثَ، ثم يعودُ، فينادي: سيعلمُ أهل الجمع لمن العزُّ اليوم والكرمُ، ليقم الحمَّادون لله على كلِّ حال. قال: فيقومون، وهم أكثرُ من الأولين».

ج) قصص ذوات أبعاد اجتماعية

لمَّا كان أكثرُ القُصَّاص عُبَّاداً زهَّاداً، يؤثرون الآخرة على الدنيا، والشَّظَف على الترف، فقد حرصوا أشدَّ الحرص على أن يبثُّوا في كثير مما يقصُّون تياراً اجتماعيّاً، يرمي إلى تهذيب الأخلاق، وقمع الأطماع، وتنشئة الناس على الإخلاص، وزجرهم عن الأَثَرة، وهذه القصص لا تخلو من أغراض سياسية، تنقدُ ظلم الرعاة، وتدعو إلى السّوية بين الرعية.

وهبُ بنُ منبه حدَّث[١] جلساءه عن رجل فقير صالح من بني إسرائيل، أخلص في طاعة الله، وسعى ما وسعه الجهد إلى الكسب الحلال، فلم يظفر به، فطوى هو وعياله على الطَّوَى أياماً، لم ينقطع فيها عن العبادة، ولم يقنط من رحمة الله، فكافأه الله من حيث لا يحتسبُ برزق، وسَّع به على عياله.

ومالكُ بن دينار قصَّ عن النبي سليمان أقصوصة، خلاصتها أنه سمع بلبلاً يغرّد من الغبطة، فترجم تغريده للناس، فقال[٢]: «إن البلبل يقول: قد أصبتُ اليوم نصفَ تمرة، فعلى الدنيا السلام».

والشعبيّ حكى حكاية[٣] عن رجل من بني إسرائيل صاد قُبَّرةً، فلما همَّ بذبحها نصحتْ له بأن يطلقها على أن تعلّمه ثلاثَ خصال، أبرزُها ألّا يندم على مافاته، لئلا يندم على إطلاقها.

---

(١) عين الأدب والسياسة/ ٢٤٧.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ١٤٨.

(٣) العقد الفريد٣/ ٦٨.

ومن القصص ذوات الأبعاد الاجتماعية المشوبة بالسياسة قصَّةٌ رواها عمرُو بنُ دينار [ت: ١٢٦هـ] عن رجل من بني إسرائيل. وعمرٌو هذا - والقولُ لابن عيينة[١] -: «ثقةٌ، ثقةٌ، ثقةٌ». وفيه قال عبد الله بن أبي نُجَيْح: «لم يكن بأرضنا - يعني الحجازَ - أعلمُ من عمرو بن دينار، ولا في جميع الأرض». وعلمه بوَّأه الإفتاءَ في مكة. وإليك نصَّ القصة كما رواها ابنُ عساكر[٢]:

«كان من بني إسرائيل رجلٌ قائمٌ على ساحل البحر، فرأى رجلاً، وهو ينادي بأعلى صوته: أَلا مَنْ رآني فلا يظلمْ أحداً. قال: فدنوتُ منه، وقلتُ له: ياعبد الله، ماقِصَّتُك؟ وما الذي بك؟ فقال: ادْنُ مني أخبرْك. كنت رجلاً شرطيّاً، فجئتُ إلى هذا الساحل، فرأيْتُ رجلاً صيّاداً، قد اصطاد سمكةً. فسألتُه أن يَهَبها لي، فأبى. فسألتُه أن يبيعنيها، فأَبَى، فضربتُ رأسَه بسوط كان معي، وأخذتُ منه السمكةَ، وحملتُها إلى منزلي، وقد ضَرَبتْ عليَّ إصبعي التي علّقْتُ بها السمكة، فأصلحوها. وقُدِّمت إليَّ، فَضَربَتْ عليّ إصبعي حتى صحتُ وبكيت. وكان لي جارٌ مُعالج، فأتيتهُ، وقلت: إصبعي. فقال: هو أَكْلة[٣]، إن أنت رميْت[٤] بها، وإلّا هلكت. فرميتُ بها، فوقع الضربان[٥] في كفّي. قال: فجئت إليه، فعرَّفْتُه، وأنا أصيح. فقال: إن رميْتَ بها، وإلّا هلكتَ، فرميتُ بها، فوقع الضربان في عضدي، فخرجتُ من منزلي هارباً على وجهي، أصيح وأبكي. فبينا أنا أسيح في البلاد رُفعت لي شجرة دَوْحاء، فَأَويْتُ إلى ظلِّها، فنعست، وأتاني آتٍ، فقال لي: لم تقطع أعضاءك وترميها؟ رُدَّ الحقّ إلى أهله، وانجُ. قال: فانتبهتُ، فعلمت أن ذلك من قبل الله عزّ وجلّ. فأتيت الصياد، فوجدته قبل أن يُخرج شبكته، فانتظرتُه حتى أخرجها، وإذا بها سمكة كبيرة، فدنوت منه وقلت: يا عبد الله، إني مملوكُكَ، فأعتقني، فقال: ما أعرفُك، فقلت: أنا الشرطي الذي ضربت رأسك، وأخذت سمكتك، وأريته يدي.

---

(١) سير أعلام النبلاء٥/ ٣٠٠.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٣/ ١٨٤.

(٣) الأكلة: قرحة تكون في العضو تتفشّى فيه في زمن يسير.

(٤) قطعتها.

(٥) في اللسان: ضرب الجرح ضرباناً: آلم وفي (حقائق أسرار الطب)/ ١١٩، الوجع الضرباني: الذي يتحرك معه العضو بتحرك الشريان.

فلما رآني على تلك الحالة رقّ لي، وقال: أنت في حلٍّ. فأقبل الدودُ يتناثر من يدي، ويسقط على الأرض، فهاله ذلك وانصرف. استوقفتُه، وأخذتُه إلى منزلي، ودعوتُ بابني وقلتُ: احفر في هذه الزاوية، فأخرجَ منها جرَّةً، فيها ثلاثون ألف درهم، فقلت: اعددْ منها عشرةَ آلاف درهم، خُذْها، فاستعنْ بها. ثم قلت: خُذْ منها عشرة آلاف أخرى، اجعلها في فقراء جيرانك وقراباتك. فقام لينصرف، فقلت: أخبرني، أدعوتَ عليَّ؟ قال: أنا أخبرك: لمَّا أخذتَ السمكة مني، وضربت رأسي، رفعتُ رأسي إلى السماء، وقلتُ: يا ربّ، خلقتني، وخلقته، وجعلته قويّاً، وجعلتني ضعيفاً، ثم سلَّطته عليَّ، فلا أنت منعتَه من ظلمي، ولا أنا جعلتني قويّاً، فأمتنع من ظلمه، فأسألُك بالذي خلقته قويّاً، وجعلتني ضعيفاً أن تجعلَه عبرةً لخلقك. فبكيتُ، وقلتُ: لقد سمع الله عزَّ وجلَّ دعاءَك، وجعلني عبرة».

تخيَّرنا هذه القصَّة من عَشَرات القِصص المُقْتَبسة من الإسرائيليات لأمور:

أوَّلُها أنَّ من قصَّها كان مفتي مكة، مشهوداً له بأنه «ثقةٌ، ثقةٌ، ثقةٌ» لا يفتري على الله كذباً، ولا يتَّهم بالوضع والتزيُّد.

وثانيها أنها تلائمُ العقيدة والمفاهيم الإسلامية، ولا تناقضُها في صغيرة ولا كبيرة من مقومات القصة الفكرية.

وثالثها انطواؤها على جريمة وعقاب: أمَّا الجريمةُ فالضربُ والغصْب. وأمَّا العقابُ - وهو من جنس الجريمة فإشرافُ العضو المعتدي- وهو يد الشرطي - على الشلل والتلف.

ورابعها أنها تصوِّر جانباً من المظالم التي يمكن أن يرتكبها خُدَّام الحكام، وأعوانُ السلطان في كلِّ عصر، وفي كل مصر، متوهمين أن سمتهم الرسمية تُنجيهم من التبعة، وتُعفيهم من الحساب والعقاب، فيغصبون ويضربون، ويذنبون ولا يعاقبون، فإذا حكم عليهم أحكمُ الحاكمين ردَّهم الخوفُ عن الباطل إلى الحق.

وخامسُها أن هذه الجريمة ارتكبها مؤمنٌ بالله لا جاحدٌ، وإيمانهُ حمله على الندم والتوبة، حينما ذكَّره الطيفُ بما ارتكب من حيف، فاعترف بما اقترف، وأسرعَ إلى التكفير عن الذنب.

والسادس - وهو أخطر ما رمت إليه القصة - أنّ فيها جانباً اجتماعيّاً تخالطُه السياسة، وهو التعبيرُ بطريقة غير صريحة عن المظالم التي ارتكبها ولاةُ الأمويين، إمّا بتوجيهٍ من الخلفاء، وإمّا لإخماد الأصوات التي كانت تعارضُ إدارتهم الجائرة.

وإذا تذكرت أن عمرَو بن دينار كان مُفْتي مكة أدركت السرَّ الذي حمله على النقد غير الصريح، وإذا تذكرت كذلك أنه عاش ثمانين سنة بين [٤٦ و١٢٦هـ] أدركت كذلك أن السنين الثمانين التي عايش فيها ابنُ دينار الحكمَ الأمويَّ وقفته على مظالم كثيرة، فتوسَّل إلى نقد المظالم بوسيلة لا يُؤْخذ بها، وهي القصُّ، لأنه بهذه الوسيلة ألقى تبعات المظالم على كاهل التاريخ القديم، لا على مَنْ ولَّاه الفتيا من بني أمية، وهذا البعدُ السياسيُّ هو الذي حمله على أن يختار لنقد الظلم قصَّةً، بطلُها شرطيٌّ يمثل السلطة الحاكمة، لا غمْرٌ من أغمار الناس.

د) من قصص العرب

لعلَّك لاحظت أن الكثرةَ الكاثرة من القُصَّاص المولعين بالقصّ عن بني إسرائيل كانوا من الموالي، وأبرزُهم وهبُ بن منبّه، وسعيدُ بن جبير، ومالك بن دينار. وربما كان ولُوعُهم بهذا الضرب من القِصص ناجماً عن ضآلة ما عَرَفوا من أخبار العرب، وما ثقفوا من تراثهم، فوجدوا في الإسرائيليات عوضاً ممَّا افتقدوا، أو ربما لم تربطهم بهذا التراث حميّة تحضُّهم على التغني به.

أمّا قصص العرب فقد كان جُلُّ رواتها من العرب الأقحاح، وبينهم خالد بن صفوان التميمي المنقري [ت نحو: ١٣٣هـ]. ولد ونشأ في البصرة، وأصاب حظّاً وافراً من أخبار العرب وأيامهم وملوكهم، وبرع في قصّها بلسان فصيح جعله جديراً بمجالسة عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك. وإليك قصة قصَّها على هشام:

«قال خالد بن صفوان بن الأهتم[١]: أوفدني يوسفُ بن عمرو إلى هشام بن عبد الملك في وفد أهل العراق، فقدمت عليه، وقد خرج بقرابته وحشمه[٢]

(١) التذكرة الحمدونية ١/ ١٥٤.

(٢) خدمه وقرابته وعياله.

وحاشيته، فنزلَ في أرض قاع[١] صحصح[٢]... وقد ضُرِب له سُرادق[٣] من حبر[٤]... وعليه دراعة من خزٍّ أحمر، مثلُها عمامتُه، وقد أخذ الناسُ مجالسَهم. قال: فأخرجتُ رأسي من ناحية السِّماط[٥]، فنظر إليّ شبهَ المستنطق لي، فقلتُ: أتمَّ الله نعَمه عليك يا أميرَ المؤمنين، وجعلَ ماقلَّدك من هذا الأمر رشداً... لقد أصبحتَ للمؤمنين ثقةً ومُسْتراحاً، إليك يقصدون في مظالمهم، ويفزعون في أمورهم. وما أجدُ شيئاً هو يا أميرَ المؤمنين، أبلغ من حديث من سلف قبلك من الملوك. فإنْ أذن أمير المؤمنين أخبرته به، قال: فاستوى جالساً وكان متكئاً، ثم قال: هات يابن الأهتم.

قلت: يا أمير المؤمنين إن ملكاً من الملوك قبلك خرج في عام مثل عامك إلى الخَوَرْنَق[٦] والسَّدير[٧]، وكان قد أُعْطي فتاء السن مع الكثرة والغلبة والقهر، فنظر، فأبعد في النظر، ثم قال لجلسائه: هل رأيتم مثلَ ما أنا فيه؟ وهل أعطي ملكٌ مثلَ ما أُعطيت؟ قال: وعنده رجلٌ من بقايا حَمَلَةِ الحجَّة، والمضيّ على أدب الحقِّ ومنهاجِه، قال- ولم تخلُ الأرض من قائم لله عزَّ وجلَّ بحجَّة في عباده-: قال: أيُّها الملكُ، إنك قد سألت عن أمر، أفتأذنُ في الجواب عنه؟ قال: نعم. قال: أرأيت الذي أنت فيه؛ أشيءٌ لم تزل فيه، أم شيءٌ صار إليك؟ قال: كذلك هو. قال: فلا أراك إلّا أعجبت بشيء يسير، تكونُ فيه قليلاً، وتغيبُ عنه طويلاً، وتكون غداً بحسابه مُرْتهناً. قال: ويلك، فأين المهربُ؟ وأين المطلبُ؟ قال: إمّا أن تقيم في ملكك، فتعملَ بطاعة الله على ماساءك وسرَّك، وأمضَّك[٨] وأرمضك[٩]، وإمّا أن تضعَ تاجك [أي

(١) أرض واسعة مستوية.
(٢) جرداء مستوية.
(٣) فارسي معرب يعني الدهليز، ما يمد فوق صحن الدار.
(٤) وشي.
(٥) الصَّف من الناس.
(٦) اسم قصر بالعراق بناه النعمان الأكبر الذي يقال له الأعور وهو الذي لبس المسوح فساح في الأرض.
(٧) السدير: بناء وهو قبة في ثلاث قباب متداخلة.
(٨) شقّ عليك.
(٩) أوجعك وأقلقك.

تخلعه] وتلبس أطمارك، وتعبد ربك حتى يأتيك أَجَلُك. قال: فإذا كان السحرُ، فاقرعْ عليَّ بابي، فإني مختار أحدَ الرأيين، فإن اخترتُ ما أنا فيه كنتَ وزيراً، لا يُعْصى، وإن اخترت فلواتِ الأرض، وقفر البلاد كنتَ رفيقاً، لا يخالفُ.

قرع عليه الباب عند السحر، فإذا هو قد وضع تاجه، ولبس أمساحه[1]، وتهيأ للسياحة، فلزما والله الجبل حتى أتاهما أجلُهما...».

«...قال: فبكى هشام حتى اخضلت لحيته، وبلّ عمامته، وأمر بنزع أبنيته، ولزم قصره. فأقبلت الموالي والحشم على خالد بن صفوان، وقالوا: ما أردتَ إلى أمير المؤمنين؟ أفسدتَ عليه لذَّته، ونغصتَ عليه باديته. فقال: إليكم عني، فإني عاهدتُ الله عهداً ألَّا أَخْلُوَ بملك إلَّا ذكَّرْتُه الله عزّ وجلّ».

هذه القصةُ التي وَعَظ بها خالدُ بن صفوان هشامَ بن عبد الملك بعضٌ من تاريخ العرب، لا أسطورةٌ من الأساطير، يعرفها هشامٌ كما يعرفُها خالد، إلَّا أن ذِكرها في الوقت الذي ذُكِرتْ فيه بثَّ في تضاعيفها روحَ الموعظة الحسنة.

بطلُ القصة ملكُ الحيرة النعمان بن امرئ القيس اللخمي توفي سنة [١٩٨ قبل الهجرة ٤٣١ م] بعدما ملك ثلاثين سنة قضاها في حروب مظفَّرة، وبناء للقصور وخاصَّة قصر الخورنق، وقصر السدير. لقد طال عمر النعمان، حتى سئم تكاليف الحياة، وملَّ الانغماس في الترف، واستبدل برداء الملك قباء النسك، ومشى في الأرض مشية سائح، حتى وافاه الأجل. وإلى نسكه بعدملكه، وشظفه بعد ترفه أشار عدي بن زيد في قصيدة له لم نذكرها في القصة لئلا نضعف بها توتر الأحداث، ومن أبياتها:

وتذكَّرْ ربَّ الخورنق إذْ أشـ ـرف يوماً، وللهدى تفكيرُ
سرَّه مالُه، وكثرةُ ما يمـ ـلكُ، والبحرُ معرضاً والسَّدير
فارْعَوَى قلبُه، وقال: وما غبـ ـطةُ حيٍّ إلى المماتِ يصير؟
ثم بعد الفلاح والملك والإمّـ ـة وارتهُمُ هناك قبورُ
ثم أضحَوْا كأنهم ورق جَفَّ، فألوَتْ به الصَّبا والدَّبور

وُفِّق خالدُ بن صفوان في اختياره هذه القصة. وفي وعظه بها هشاماً، لا ليفسد عليه لذَّتَه، وينغِّصَ عليه باديته، كما زعم المتملّقون والمنافقون،

(١) ج مِسح: الكساء من الشَّعر.

وإنما لِيُذْهِب عنه وعن جلسائه الشعور بالغرور، ويذكّره - كما قال - عظمةً تفوق عظمتَه، فيهون في عينه الملك. ويتبدَّى توفيقه في أمور:

أولُها أن حال هشام كانت كحال النعمان، فهشامٌ أطولُ الخلفاء الأمويين خلافة، كما كان النعمان أطول اللخميين ملكاً.

وثانيها أن هشاماً- والقولُ للسيوطي[١] -: «كان حازماً عاقلاً، لا يُدْخل بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون قسَّامة بأنه أُخِذَ من حقّه، وأُعْطِيَ منه لكل ذي حقّ حقّهُ». وهذا يعني أن ورعه يفتح قلبه للموعظة.

وثالثها أنه تابع سياسة أخيه الوليد في البناء، فعُرف به كما عرف النعمان ببناء الخورنق والسدير. قال الشافعي[٢]: «لَمَّا بنى هشام الرصافة بقنسرين أحبَّ أن يخلوَ يوماً، لا يأتيه فيه غمّ، فلما انتصف النهار أتته ريشة بدم من بعض الثغور، فأوصلت إليه. فقال: ولا يوماً واحداً!؟».

ورابعها أنه بعدما طال ملكُه لم يجدْ فيما يلذُّه من نعيم الدنيا غير الظفر بصديق صدوق يخلص له في الودّ، ويمحضُه النصح، فقال[٣]: «ما بقي شيءٌ من لذات الدنيا إلّا وقد نلته، إلا شيئاً واحداً، أخاً أرفع مؤنة التحفظ فيما بيني وبينه». وتجلت رغبته هذه فيما سمع من خالد بن صفوان.

وخامسُها أن هشاماً كان حليماً واسع الصدر، يصغي بسمعه وقلبه إلى صوت الحق، ولو صدر- كما مرَّ بك في خطب الوفود- عن غلام لَمَّا يحتلمْ اسمه درباس بن حبيب، فكيف لا يصغي إلى حكيمٍ حليمٍ من طبقة صفوان؟!.

وسادسها أنه كان يكره الانقياد للهوى، ويحتكم إلى العقل. وقد أثر أنه نظم بيتاً واحداً من الشعر، وهو قوله:

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى إلى بعضِ ما فيه عليك مقالُ

تستطيع أن تستنبط ممَّا سبق أن القصَّ لم يكن متعةً أدبية خالصة، ولا وعظاً بأسلوب فني مَحْض، وإنما كان بعضاً من بنية الدولة الأموية، وأن أهل القصّ

(١) تاريخ الخلفاء/ ٢٣٠.
(٢) المصدر السابق/ ٢٣٠.
(٣) المصدر السابق/ ٢٣٠.

كانوا يجالسون الخلفاء في حلِّهم ويواكبونهم في ترحالهم، ويلازمونهم إن بَدَوْا وإن حَضَرُوا، ويؤثّرون في تفكيرهم وسلوكهم كما يؤثرون في عامة الناس.

جـ- الوعظ

١- تمهيد

في مقدمة هذا الباب فسَّرنا معنى الوعظ في اللغة وأتبعنا التفسير تعريفاً حاولنا فيه أن نميز المواعظ من القصص والرقائق على ما بين هذه التوائم من تشابه، يبلغُ في بعض الأحيان حدَّ التطابق. وهذا التشابُه سوَّغ لنا أن نجمعَ الطوائف الثلاث في باب واحد.

فإن أبيْتَ إلا التمييز والفصل فأَقِم الفروقَ بين ثلاث الطوائف الشقائق على أساس العموم والخصوص، لا على أساس الجنس والنوع. فالقاصُّ أوسعُ أفقاً، وأمرنُ طريقةً، وأكثر تشويقاً من الواعظ لأنه يتناولُ بالقصّ أفكارَ الواعظ ويعرضُها بأسلوب سرديّ حيّ، يتضمَّن الحوادثَ والشخوص والبيئةَ والحوار. والواعظُ يقتصرُ على الأفكار التي تنطوي عليها القصصُ، ويعرضها عرضاً تقريريّاً مباشراً على سبيل الأمر والنهي، والترهيب والترغيب، والتبغيض والتحبيب، فالوَعْظُ إذن أخصُّ من القصِّ.

والوعظُ، مع أنه أخصُّ من القص، يبقى أعمَّ من فن الرقائق؛ لأن الرقائق تقتصرُ فيما تزجي من أقوال على جانب واحد من جوانب الوعظ وهو الكَلَفُ بكل ما يرقِّقُ القلبَ، ويُرْهف الشعور، ويخاطب النفوس بجمل واضحة الأفكار، حارَّة العواطف ليِّنة الأسلوب تتَّجه إلى وجدان الإنسان قبل عقله، وإحساسِه قبل منطقه ورحمته قبل قدرته. وباختصار أشدَّ نقول: جلُّ المواعظ عقلٌ وأقلُّها عاطفة، وجلُّ الرقائق عاطفةٌ وأقلُّها عقل.

٢- أعلام الوعظ في العصر الأموي

لما كان الوعظ والقصُّ شقيقين أنجبتهما أسبابٌ ودوافع متشابهة، وهدفا إلى تحقيق أغراض وغايات متماثلة فإن كلَّ ما ذكرناه من بدايات القصّ في كتاب (النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة) ثم اختصرناه في مستهلّ هذا الباب من هذا الكتاب يمكن ذكره في بداية الكلام على الوعظ، غير أننا أغفلناه

ها هنا لئلا نثقل الكتاب بالتكرار. لقد شاع الوعظ في العصر الأموي وكثر روَّاده وقُصَّاده، وتناقلته الألسنة والصحف، وملأَ حلقات التدريس في المساجد وأسمار الأمراء في المجالس، وكثر أربابهُ حتى شقَّ علينا إحصاؤُهم واستقصاؤُهم فاجتزأنا اليسير من الكثير، وذكرنا المشهور وأغفلنا المغمور. وربّما كان فيمن أغفلنا وُعَّاظ أفذاذٌ يبزُّون من نوَّهنا بهم فكراً وبياناً وصدقاً وقدرة على التأثير في الجماهير، فَمَنْ أبرز الوعاظ في العصر الأموي؟

في عهد معاوية بن أبي سفيان اشتهر بالوعظ الصادق والاجتهاد في الزهادة والعبادة عامر بنُ عبد الله المشهور بابن عبد قيس العنبري [ت نحو: ٥٥هـ] «وهو أول من عرف بالنسك من عُباد التابعين بالبصرة ومات في بيت المقدس».

وفي عهد يزيد توفي من الوعاظ الربيع بن خيثم [ت: ٦٣هـ] وسليمانُ بن صرد الخزاعي وهو صحابي تشيَّع وندم على خذلانه الحسينَ ﷺ، وتزعَّم حركة التوابين وراح يعظ أتباعه، وقتل في معركة عين الوردة [سنة: ٦٥هـ].

وفي خلافة عبد الملك بن مروان توفي الواعظ صفوان بن محرز [سنة ٧٤هـ] وصلةُ بن أشيم الذي استشهد في غزاة غزاها مع جيش أنفذه الحجَّاج للفتح في بداية إمرته [سنة ٧٥هـ]، وعبدُ الله بن شداد وكان من كبار التابعين وثقاتهم، خرج على الأمويين مع ابن الأشعث وقتل يوم دجيل [سنة ٨١هـ]. وفي العقد الأخير من القرن الأوّل الهجري توفي زاهدان عابدان عُرفا بالقصِّ والوعظ، والنسك والنصح؛ وهما مطرف بن عبد الله المعروف بابن الشخير وكان يقص في البصرة [ت: ٩٥هـ] ومورق العجلي [ت نحو: ١٠٠هـ].

وأشهر منهما في الوعظ عامر بن شراحيل الحميريّ المشهور بالشعبي توفي مطلع القرن الثاني [سنة ١٠٣هـ] وكان فقيهاً شاعراً محدثاً، استقضاه عمر بن عبد العزيز لعلمه وتقواه. وطاووس بن كيسان [ت: ١٠٦هـ] وكان من سادات التابعين في اليمن. وفي السنة نفسها التي شهدت وفاة طاووس توفي بكر بن عبد الله المزني، وكان من كبار الزهاد الأتقياء.

وفي بداية خلافة هشام بن عبد الملك توفي شيخ دمشق وإمام جامعها التقي الصالح، الزاهد العابد، بلال بن سعد السكوني [ت نحو: ١١٠هـ] وقال الذهبي: «توفي بلال سنة نيف وعشر ومئة»، ولحق به بعد فترة أبو إياس معاوية بن قرة الإمام الواعظ [ت: ١١٣هـ] ثم ميمون بن مهران [ت: ١١٧هـ]

وكان في خلافة عمر بن عبد العزيز قاضي الجزيرة. وفي أواخر عهد هشام توفي محمد بن مسلم الزهري [ت: ١٢٤هـ] وهو أول من دون الحديث، وكان من حفظة التابعين، شهد له بسعة العلم عمر بن عبد العزيز.

وقبل أن ينقضي العصر الأموي توفي حسان بن عطية [سنة ١٣٠هـ] وكان إماماً حجة كثير العمل والاجتهاد يعظ أهل بيروت. وبعيد انقضاء الخلافة الأموية توفي خالد بن صفوان بن الأهتم التميمي المنقري [ت: ١٣٣هـ] وكان من جلساء عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك. ومن الوعاظ الذين امتد بهم العمر فعاشوا حتى أدركوا الخلافة العباسية زيد بن أسلم العدوي [ت: ١٣٦هـ] كان فقيهاً مفسراً من أهل المدينة، صحب عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، وكان ذا حلقة في المسجد النبوي. والفضل بن عيسى الرقاشيّ واعظ البصرة [ت: ١٤٠هـ] وأحد القائلين بمذهب القدرية. وسلمة بن دينار المعروف بأبي حازم الأعرج [ت: ١٤٠هـ].

ولعلَّك لاحظت أن بين الوُعَّاظ من ذكروا بين القُصَّاص، لم يذكروا على سبيل التكرار وإنّما ذُكروا لأنَّ حظَّهم من الوعظ لم يكن أقلَّ من حظهم من القصّ. ولعلك لاحظت كذلك أن مسرد الوعاظ السابق أغفل اثنين من أعظم الوعاظ، إن لم يكونا أعظمهم على الإطلاق في العصر الأموي، وهما الحسن بن يسار المشهور باسم الحسن البصري [ت: ١١٠هـ] ووهب بن منبه [ت: ١١٤هـ] وقد أغفلا لأنهما أنبه من أن ينوه بهما، والمعروف لا يعرَّف. وقد يذهب بك العجب كل مذهب إذا علمت أن الوعظ في العصر الأموي لم يكن وقفاً على العلماء والفقهاء، والزهاد والعباد، وإنما كان سنة متبعة يستن بها كل من أصاب نصيباً من ورع وحكمة، ودين وخلق، أو أوتي حظاً من بيان وفصاحة، ولو كان خليفة أو أميراً، وسواء أكان من طبقة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة أم من أضراب الحجاج في الحزم والغشم.

٣- أغراض الوعظ ومعانيه

لا يستطيعُ الباحث أن يحصر كلَّ الأفكار التي دعا إليها الوُعَّاظ في العصر الأموي، وينظمها في سلك يميِّزُ الوعظَ من أنماط النثر الفني التي تقاربه، لأن هذه الأفكار تناولت أكثر القضايا التي تهم البشر في دنياهم وأخراهم، وحلَّلت أعمقَ العواطف التي تخامرهم في رحلة العمر، وحاولتْ أن تعالج القضايا وتهذّب العواطف.

تطالعُك أفكارُ المواعظ بأغراض يشقُّ عليك إحصاؤها، ومنها الحياةُ والموت، والغنى والفقر، والعلمُ والجهل، والعدل والظلم، والذنب والتَّوْبُ، والمظَهْر والجوهر، والخَلْقُ والخالق، والرزقُ والرازق، والبَعْث والحساب، وعلاقة الإيمان بالعمل، والعلماء بالأغنياء، والإخلاص في الطاعة، والزهد في المتارف، والصبر على المكاره، والشوق إلى الجنة، والخوفُ من النار، وتصوير القدرة الإلهية والضعف الإنساني، والاعتبار بتصاريف الدهر وأحداثه، وعشرات الأضداد المتعارضة، والتيارات المتناقضة التي يتعرَّض لها الإنسانُ في الصراع الأزلي الأبدي بين نوازع الخير والشر، فينبري لها الوعظ ليغلِّب خيرها على شرها وفق التصور الإسلامي للكون وللحياة.

وتعداد هذه الأغراض لا يعني أن الوعاظ كانوا يقفون الموعظة الواحدة على غرض واحد، وإنما كانوا يناقلون بين الأغراض والمعاني كما كان الشعراء يجمعون الطلل والغزل، والصيد والمدح في قصيدة واحدة. وحجة الواعظ - كما يخيَّل إلينا - أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وللمعروف وجوه من الخير يفضي بعضها إلى بعض. وللمنكر دروبٌ ملتويةٌ من الشرّ يؤدّي بعضها إلى بعض. ولهذا فأنت تلاحظ أنه كلَّما امتدَّت الموعظة كان امتدادها أدعى لتعدُّد الأغراض.

فما أبرزُ الأغراض التي شاعت في الوعظ؟

أ) الحياة والموت

ربما كانت حقيقةُ الموت أشيع الحقائق التي ألحَّ الوعَّاظ على إبرازها وترسيخها في عقول الناس طَوَالَ العصر الأموي. وإلحاحُهم مرتبط بالعقيدة الإسلامية التي تؤمن بأن الدنيا دارُ ابتلاء وفناء، وأن الآخرة دارُ جزاء وبقاء، وأن أعمار الناس في قبضة الخالق يبسطها ويقبضها متى أراد، وأن الأحياء مهما تَطُل حَيَواتهُم على ظهر الأرض مسافرون إلى جوفها، والدليل على ذلك أن سهام الموت تترصدهم في كل منعطف، وتقتحم عليهم كل مأمن، فعلام التعلق بوهم البقاء، والتغافل عن حقيقة الفناء؟ قال وهب بن منبه[1]: «يا بن

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٨٢.

آدم، إنه لا أقوى من خالقٍ، ولا أضعف من مخلوق، ولا أقدر ممَّن طَلِبَتُهُ في يده، ولا أضعف ممن هو في يد طالبه.

يا بن آدم، إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك، وأقام عندك ما سيذهب عنك؛ فما الجزعُ ممَّا لابُدَّ منه؟ وما الطمعُ فيما لا يُرْتجى؟ وما الحيلةُ في بقاء ما سيذهب؟

يا بن آدم، إنما أهل الدنيا سَفْرٌ لا يحلون عقد رحالهم إلَّا في غيرها. وإنما يتبلَّغون بالعواري. فما أحسنَ الشكرَ للمنعم والتسليمَ للمعاد!!

يا بنَ آدمَ، إنّما الشيءُ من مثله وقد مضت قبلنا أصولٌ نحن فروعُها، فما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله؟

أيُّها الناسُ، إنما أنتم في هذه الدنيا غَرَضٌ[١] تنتضل[٢] فيه المنايا وإنَّ ما أنتم فيه من دنياكم نهب للمصائب، لا تنالون فيها نعمةً إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل منكم معمَّرٌ يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا يتخذ له زيادة في ماله إلا بنفاد ما قبله من رزقه، ولا يحيا له أثرٌ إلا مات له أثرٌ».

إن حقيقة الموت التي لا يجرؤ على إنكارها مؤمن ولا جاحد، تجعل الإقرار بها والإذعان لها شرطاً من شروط الإيمان بالله الذي يحيي ويميت، وتحمل الأحياء، كما يرى عمر بن عبد العزيز، على أن يبكوا أنفسهم قبل أن يبكوا الأموات وأن يزهدوا فيما يملكون لا على أن يحتجنوه ويضنوا به، لأنهم يرافقونه أمداً، ثم يفارقونه أبداً، وخالقُ الخلْق هو المالكُ الحقيقيُّ الذي يبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويقدر. أمَّا الأغنياءُ فإنَّهم وكلاء أو أجراء، سُخِّروا لتثمير المال، ثم أُخِذ منهم أو أُخِذوا منه. وبقيتِ السيادة لحقيقة الموت.

كان لعمر بن عبدِ العزيز صديقٌ، فأُخبر أنه قد مات، فجاءَ إلى أهله يعزيهم، فصرخوا في وجهه، فقال لهم عمر[٣]: «مَهْ[٤]، إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإنَّ الذي يرزقكم حيٌّ لا يموتُ. إن صاحبكم هذا لم يسدَّ شيئاً

(١) هدف.
(٢) ترميه بالسهام.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ١٩/ ١٢٠.
(٤) اسم فعل أمر للزجر والنهي بمعنى اكفف.

من حُفَركم، وإنمَّا سدَّ حفرةَ نفسِه. لكلِّ امرئٍ منكم حفرةٌ، لا بدَّ - والله - أن يسدَّها. إن الله - جلَّ ثناؤه - لَمَّا خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء. وما امتلأتْ دارٌ حبرةً إلا امتلأت عَبْرَة، ولا اجتمعوا إلّا تفرقوا، حتى يكون الله هو الذي يرثُ الأرض ومَنْ عليها. فمن كان منكم باكياً، فليبكِ على نفسه. فإن الذي صار إليه صاحبُكم كلكم يصير إليه غداً».

وإذا كان الموت يهدم اللذات، وينغِّصُ على السعيد سعادتَه، ويكدِّر صَفْوَه، فكيف يحيا العاقل عمره؟ أيحياه في حزن دائم، وحسرات مُمضَّة، أم يحاول أن يجد متنفّساً للنفس، ومستراحاً للروح؟

ينصح وهبُ بن منبه للإنسان بأن يخصص من عمره أربعة أوقات يغسل بها أوضار الحياة: أولُها للزهادة والعبادة، وثانيها للمراقبة والمحاسبة، وثالثها للقاء الأصدقاء، والرابع للاستجمام بالحلال لا بالحرام، فيقول:

«في حكمة آل داوود: حقٌّ على العاقل أَلَّا يغفلَ عن أربع ساعات: ساعةٍ يُناجي فيها ربَّه، وساعةٍ يحاسب فيها نفسه، وساعة يُفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعةٍ يخلّي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحِلُّ ويُحْمَدُ، فإن هذه الساعة عَوْن على هذه الساعات، وإجمامٌ للقلوب. وحقٌّ على العاقل أن يعرفَ زمانه، ويحفظ لسانه، ويقبل على شأنه. وحقٌّ على العاقل ألّا يظعن إلّا في إحدى ثلاث: زادٍ لمعاده، ومرمَّةٍ لمعاشه، ولذَّةٍ في غير محرَّم».

ب) الجوهر والمظهر

محورُ الوعظ الحثُّ على الإخلاص في القول والعمل، وفي العقائد قبل الشعائر، وترغيب الناسِ عن الدنيا في الآخرة، وعن المظهر في الجوهر. ولذلك حَرَص بلالُ بن سعد السَّكونيُّ على أن يصرف أبصارَ الناس وبصائرهم عن عَرض الحياة الفانية إلى جوهر الحياة الباقية، وعن اقتراف السيئات المُرْديات إلى ادّخار الصالحات الباقيات، ليصبحوا أهلاً لرحمة الله، لأن رحمة الله التي وسعت كلَّ شيءٍ ظلالٌ قدسية طاهرة، فمن القِحَةِ المرذولة، أن يجرؤ على مقاربتها مَنْ تسربل بأرجاس المعاصي. قال بلال[1]:

(١) البداية والنهاية ٩/٣٤٨.

«ربَّ مسرور مغرورٌ، ورب مغرور لا يشعرُ، فَوَيْلٌ لمن له الوَيْلُ، وهو لا يشعر: يأكلُ، ويشربُ، ويضحكُ، وقد حقَّ عليه في قضاء الله أنه من أهل النار.....

عبادَ الرحمن أمّا ما وُكِّلْتم به فتضيِّعونه، وأمَّا ما تكفَّل الله لكم فتطلبونه. ما هكذا نَعَتَ الله عباده المُوقنين. أذوو عقول في الدنيا، وبُلْهٌ في الآخرة، وعُمْيٌ عمَّا خُلِقتم له، بُصراء في أمر الدنيا؟ فكما ترجون بما تؤدّون من طاعته، فكذلك أَشْفِقوا من عذابه بما تنتهكون من معاصيه».

وهَبْك من الذين أكرمهم الله، وقدّر أن تَسَعهم رحمتُه، وأن يُدْخلهم جنَّتَه، وأن يُنجيَهم من النار بعفوه وكرمه، لا بورعهم وعبادتهم؛ فإن اجتهادَك في الطاعة، وإخلاصَك في العبادة، يرفعانِك عند الله درجات، فلماذا ترتضي النقصَ، والكمالُ ممكن؟ فلتبادرْ إلى العمل في الدنيا قبلَ أن تتمنَّاه في الآخرة، وأنت عنه عاجزٌ. قال مُطرِّف بنُ عبد الله بن الشخير[١]:

«يا إخوتي اجتهدوا في العَمَل، فإنْ يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات في الجنة. وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحاذر لم نقل: ربنا ارجعنا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ نقول: قد عملنا فلم ينفعنا ذلك».

وقال بلال بن سعد[٢]: «عبادَ الرحمن، قبل أن تعملوا أعمالكم، انظروا ماذا تُريدون بها؟ فإن كانت خالصةً فأَمْضوها[٣]، وإن كانت لغير الله فلا تشقُّوا على أنفسكم، فإن الله لا يقبلُ من العمل إلَّا ما كان له خالصاً».

ج) السرّ والعلانية

إن تمييزَ الجوهر من العَرَض، والخفي من الظاهر، والإخلاصَ من المداهنة حَمَل الوُعَّاظ على أن يغوصوا في نفوس الناس كما غاصوا في حقائق الدين، لكي يمحّصوا ما يكمن خلفَ الأستار من أسرار، ومَضَوْا يحاربون

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٤/٣٤٦.
(٢) البداية والنهاية ٩/٣٤٨-٣٤٩.
(٣) قوموا بها.

النفاق بكل صوره، ما عُرف منها وما جُهل، وينصحون للبشر بأن يتذكَّروا أن الله علَّامَ الغيوب مُطَّلعٌ على السرائر، وأن النفاقَ داءٌ، دواؤه الصدقُ الخالص والتوبةُ النصوح. قال الربيعُ بن خيثم في بعض مواعظه[١]:

«السرائرَ السرائرَ اللاتي يخفينَ من الناس، وهن لله بَوادٍ. التمسوا دواءهن، ومادواؤُهن إلّا أن يتوبَ، ولا يعود». وغاص وهبُ بن منبّه مغَاصَ الربيع بن خيثم، فكان أعمقَ غوْراً، إذْ جعلَ للإيمان مقياساً لا يُخطئ. وهو أن يوافقَ خفيُّ المرء جليَّه، حينئذٍ يحوز طبقَةَ المؤمنين، ويبلغُ رتبة الصدِّيقين، لأنه استودعَ عملَه حفيظاً لا يُضيعه، بإخلاصه المَحْضِ له وحده، قال وهبٌ لابنه، وهو يعظه[٢]:

«يابنيَّ، أخلصْ طاعةَ الله بسريرةٍ ناصحة، يصدقْ بها فعلُك في العلانية. فإنَّ مَنْ فَعَل خيراً، ثم أسرَّه إلى الله فقد أصاب مواضعَه، وأبلغَه قرارَه، ووضعَه عند حافظه. وإنَّ مَنْ أسرَّ عملاً صالحاً، لم يُطْلع عليه إلَّا الله، فقد أطلع عليه مَنْ هو حَسْبُه، واستحفظَه واستودعه حفيظاً لا يُضيع أجرَه».

ومضى ابنُ منبّه في موعظته فجعل السرَّ أصل العلن، وباعث العمل، وشبّه النية الصادقة بالجذر السليم، والعلانية بالورق والأغصان والثمر، ورجّح الخفيّ المضمر على الجلي المعلن، فقال:

«إن مثل العلانية مع السريرة كمَثَلِ ورق الشجرة مع عرقها: العلانيةُ ورقها، والسريرةُ أصلُها.... إن العلانية تنفعُ مع السريرة الصالحة، ولا تنفعُ العلانية مع السريرة الفاسدة، كما ينفُع عرقُ الشجرة صلاحَ فرعها، وإن كانت حياته من قِبَلِ عرقها، فإن فرعها زينتُها وجمالُها. وإن كانت السريرة هي ملاكَ الدين، فإنَّ العلانية معها تزيّن الدين وتجمله إذا عملها مؤمنٌ، لا يريدُ بها إلا رضاءَ ربّه عزَّ وجلَّ».

وتحدّث بلالُ بنُ سعد عمَّا في نفوس المنافقين من ازدواج يمزِّق شخصيَّاتهم، وتضادٍّ بين ما يُظْهرون وما يُضْمرون، وخُيِّل إليه أنهم في السرِّ جُنْدُ الشيطان، وفي العلن جُنْد الرحمن، والنقيضان لا يجتمعان إلا فيمن أرضوا الخلق بإسخاط الخالق. قال بلال[٣]:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٩.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٠١.

(٣) المصدر السابق ٩/ ٣٤٨-٣٤٩.

«لا تكن وليّاً لله في العلانية، وعدوَّه في السّر. ولا تكنْ عدوَّ إبليس والنفس والشهوات في العلانية، وصديقهم في السرّ. ولا تكنْ ذا وجهين وذا لسانين؛ فتظهر للناس أنك تخشى الله ليحمدوك، وقلبُك فاجر».

لقد برع الوُعَّاظ في تحليل النوازع البشرية براعةً بالغة، مكَّنتهم من التغلُّل في الكهوف المظلمة، والتسلُّل إلى الأسرار المُغْلقة، ثم أداروا فيها ألسنتهم إدارة المفاتيح في الأقفال، فانفتحت، وألقت ما فيها وتخلَّت، فافتُضِح المستور، وانكشف ما يتخلَّج وراء المحسوس في مغاور النفوس، فتحولت المعاني المجرَّدة إلى صور مجسدة، فإذا جوانحُ المنافقين مطويَّةٌ على جيوش من أبالسة، تتنكَّر بأجنحة الملائكة، وعلى غابٍ من جذور وجذوع، وأوراق وأزهار، طلعُها كأنه رؤوس الشياطين.

وأدلُّ ما يدلك على صاحب الطوية النقية زهدُه في الادعاء، واجتهادُه في العبادة، وإدمانهُ الصمتَ، لأن طولَ الصمت يعقلُ اللسان، ويطلقُ جناحي الفكر، فيتدبَّرُ أسرارَ الكون، ويعود على السريرة بالصفاء. قال قسامة بن زهير المازني[1] [ت: بعد سنة ٨٠هـ]:

«يا معشر الناس، إن كلامكم أكثر من صمتكم، فاستعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الصواب بالفكر».

قال أيضاً:

«روّحوا هذه القلوب تعِ الذكر».

د) الرزق والرازق

لَمَّا كان جمع المال شغلَ الناس الشاغل، فإن الوُعَّاظ حاولوا أن يكبحوا جماح المتنافسين في طلبه، فراحوا يحثّونهم على التعفُّف، ويصرفونهم عن التزلُّف، لأن الله قدَّر أرزاق الخلائق، وأفاءَ على كل مخلوق ما قسم له. وإذا كان الخالق الرازق مصدرَ الرزق فعلى الإنسان ألَّا يلتمسه من سواه، وألَّا ينظرَ إلى ما أنعم الله به على غيره. قال زيد بن أسلم العدوي بالولاء[2]:

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٢٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/ ١١٢.

«استغنِ بالله عما سواه، ولا يكونن أحدٌ أغنى بالله منك، ولا يكنْ أحدٌ أفقر إليه منك، ولا تشغلنَّكَ نعمُ الله على العباد عن نعمته عليك، ولا تشغلنَّك ذنوبُ العباد عن ذنوبك، ولا تُقْنِط العباد من رحمة الله، وترجوها أنت لنفسك».

وعظ وهب بن منبه مفتي مكة ومحدّثها عطاء بن أبي رباح [ت: ١١٤هـ] فنصح له بأن ينتجع الخصب لا الجدب، ويرد المنبع لا المصب، فيلتمس الرزق من الخالق الرازق لا من المخلوق الضنين بما آتاه الله، فالأول لا يغلق باباً دون سائل، ولا يمسك نعمة عن محتاج. ثمَّ حبَّب إليه الرضى باليسير، وبغَّض إليه الجشع، فالمقبل على الدنيا لا تقف مطامعه عند حدّ، والمنهوم لا يشبعُ مهما يبلع. قال وهب[١]:

«ويحك يا عطاءُ، تأتي مَنْ يُغلقُ عليك بابَه، ويُظْهر لك فقرَه، ويواري عنك غناه. وتدعُ من يفتح لك بابه، ويُظهر لك غناه، ويقول: ادعوني أستجبْ لكم! ويحك يا عطاء، إن كان يُغنيك ما يكفيك، فإن أدنى ما فيها يُغنيك. وإن كان لا يغنيك ما يكفيك، فليس فيها شيءٌ يغنيك. ويحك يا عطاء، إنَّما بطنُك بحرٌ من البحور، ووادٍ من الأودية، لا يملؤُه إلَّا التراب».

وإذا كان وهبٌ قد لام عطاءً لأنه أعسر، فاستعطى، فالحسن البصريُّ لام محمدَ بن الأهتم لأنه أيسرَ، وما أعطى. وكلاهما سيئ الظنِّ بالخالق الرازق. قال ابن كثير في ترجمة الحسن البصري[٢]: «قال فرقد: دخلنا على الحسن فقلنا: يا أبا سعيد، ألا يعجبك من محمد بن الأهتم؟ فقال: ما له؟ فقلنا: دخلنا عليه آنفاً، وهو يجودُ بنفسه، فقال: انظروا إلى ذلك الصندوق- وأومأ إلى صندوق في جانب بيته- فقال: هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار-أو قال: درهم- لم أؤدِّ منها زكاةً، ولم أصل منها رحماً، ولم يأكلْ منها محتاجٌ. فقلنا: يا أبا عبد الله، فلمن كنتَ تجمعُها؟ قال: لرَوْعةِ الزَّمان، ومكاثرةِ الأقران، وجفوة السلطان» لو أتيح للبصري أن يعظَ ابنَ الأهتم لوعظه، لكن الموت سبقه إليه فوعظَ من أخبروه خبره، ومن ورث ماله. «فقال- أي الحسن

(١) البصائر والذخائر ٨/ ٥٦.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٣.

البصري-: انظروا من أين أتاه شيطانُه، فخوَّفه روعة زمانه، ومكاثرةَ أقرانه، وجفوةَ سلطانه؟ ثم قال: أيها الوارث، لا تُخْدَعَنَّ كما خُدع صويحبُك بالأمس. جاءك هذا المالُ، لم تتعبْ لك فيه يمين، ولم يعرق لك فيه جبين. جاءك ممَّن كان له جموعاً منوعاً، من باطل جمعه، من حقّ منعه. ثم قال الحسن: إن يوم القيامة لذو حسرات: الرجل يجمعُ المال، ثم يموت، ويدعه لغيره، فيرزقُه الله فيه الصلاح والإنفاق في وجوه البرِّ، فيجدُ-يعني المورِّث- مالَه في ميزان غيره».

هـ) العلماء والأمراء

إن صلة العلماء بالأمراء كانت طَوالَ العصر الأموي من الأغراض التي شغلتْ كثيراً من مواعظ الزهّاد، وأَجْرَتْ غزيراً من المداد، وذهب القدرُ الأعظم منها مذهبَ الحذَر والنقد، أو الإعراض والرفض، سواءٌ ما وَعَظوا به واتَّعظوا، حتى ليُخيَّلُ إليك أن من كانوا يتَّصلون من العلماء بالرعاة ينفصلون عن الرعية، أو يُنْظَرُ إليهم بعين الريبة، ولا نستثني منهم غير الذين اتَّصلوا بعمر بن عبد العزيز، كأن ورعه لم يجذب إليه غير الثقات. سخر الحسنُ البصريُّ من العلماء الذين يُرْخصون علمهم للخلفاء والولاة، ورأى أنهم حينما أهانوا أنفسهم هانوا على الناس خاصَّتِهم وعامَّتِهم، إذْ أصبحوا من الساقة المنساقة في ركاب الساسة، وحقُّهم أن يكونوا الهداة لا الحداة، والقدوةَ لا المقتدين، فقال[1]:

«إن العلماء كانوا قد استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا، وكانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا ما لا يقضي أهل الدنيا بدنياهم فيها. وكان أهل الدنيا يبذلون لأهل العلم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم اليوم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبة في دنياهم، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم، وزهدوا في علمهم لمّا رأوا سوء موضعه عندهم».

وإذا كان قول البصري يصدق على ابن شهاب الزهري الذي ختمنا باب الرسائل بما أرسله إليه أبو حازم الأعرج، فإن كثيراً من العلماء العظماء زهدوا فيما طلب، ولم يحتطبوا ممّا احتطب، ومنهم طاووس بن كيسان اليماني. لقد

(١) البيان والتبيين٣/ ١٣٦.

همَّ سليمان بن عبد الملك أن ينثر دونَ طاووس بعضَ الحَبِّ، فأبى منقارُه أن يلتقط منه حبةً واحدة، لكي يظلَّ الآمر لا المأمور، مؤمناً بأنه كان ينطقُ بصوت الحقّ، وبأنه متى أكل من خبز السلطان، أو جلس إلى خوانه كان عليه أن يضرب بسيفه لا بسيف الله، فآثر المجافاة على المصافاة، والصدَّ على الودّ.

قال ابن كثير[١]: «ذكر الزهريُّ أن سليمان رأى رجلاً يطوف بالبيت، له جمال وكمال، فقال: من هذا يا زهري؟ فقلت: هذا طاووسُ، وقد أدرك عدَّة من الصحابة، فأرسلَ إليه سليمان، فأتاه، فقال: لو ما حدَّثتنا؟ فقال: حدَّثني أبو موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهون الخلق على الله عزّ وجلّ مَنْ وَلِيَ من أمور المسلمين شيئاً، فلم يعدل فيهم. فتغيَّر وجه سليمان، فأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه إليه، فقال: لو ما حدثتنا؟ فقال: حدَّثني رجلٌ من أصحاب النبيّ ﷺ - قال ابنُ شهاب: ظننتُ أنه أراد عليّاً - قال: دعاني رسولُ الله ﷺ إلى طعام في مجلس من مجالس قريش. ثم قال: إن لكم على قريش حقّاً، ولهم علىً الناس حقٌّ، ما إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا ائتمنوا أدَّوْا. فمن لم يفعل فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبلُ الله منه صرفاً ولا عدلاً. قال: فتغيَّر وجهُ سليمان، وأطرق طويلاً».

ونفورُ طاووس من سليمان لا يعني أنَّ كلَّ عالم ربطَ سبَبَه بخليفة كان يتودَّدُ ليتزوَّد، فقد كان مِنَ العلماء مَنْ يعظون وَعْظَ ناقد زاهد، لا وعظَ متودِّد متزلِّف، وخاصَّة في كنف عمر بن عبد العزيز، كأن زهدهم عانق زهد الخليفة، فإذا هو نصحٌ خالص لله.

«دخل خالد بن صفوان بنُ الأهتم[٢]، على عمرَ بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين، أتحبُّ أن تُطْرَى؟ قال: لا، قال: أفتحبُّ أن توعَظَ؟ قال: نعمْ» وراحَ خالدٌ يعظ الخليفة الراشد، والخليفة يُصْغي إليه. فتحدَّث الواعظُ عن البعثة النبوية والخلافة الراشدة، وأشاد بمناقب الخلفاء الأربعة، ثم ختم موعظته بقوله لعمر بن عبد العزيز: «ثم أنتَ يا أمير المؤمنين بين يدي الدنيا،

(١) البداية والنهاية٩/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٠٨.

وَلَدتْك ملوكُها، وغذتك كَلأَها، وألقمتْك ثديها، وأنت بتَّ فيها، تلتمسها من مظانّها، حتى إذا أفضت إليك أخطارُك منها قذرتها وحقرتها، وألقيتها حيث ألقاها الله إلّا ما تزوَّدتَ منها، فالحمدُ لله الذي جلا بك حَوْبَتَنا[١]، وكشفَ بك كربَتنا، وصَدَّقَ بك قولَنا عليك، فامضِ، ولا تلتفتْ، فإنه لا يذلُّ على الحقِّ شيءٌ، ولا يعزُّ على الباطل شيءٌ. أقول قولي هذا، وأستغفرُ الله لي ولكم».

و) محاسبة النفس

من أشقِّ الأمور على المنافق أن يعترفَ بما يقترفُ، فهو لتماديه في الضلال، وإصراره على الإنكار، يصابُ بعَمى البصيرةِ، فلا يندمُ بعد أن يأثم، ولا يمحو الإثمَ بالتوبة، حينئذٍ تلوثُ ذنوبهُ حول عيني قلبه عصابةً سوداءَ، تحجبُ عنه وجهَ الشيطان الذي يُساورُه من كلِّ ناحية، وفي كلِّ حين، فيضلُّ ويزلُّ، وهو يتوهَّم أنه يسلك صِراطاً سويّاً. قال ميمون بن مهران[٢]:

«إن العبدَ إذا أذنب ذنباً نُكِتَتْ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، فإذا تاب مُحِيت عن قلبه، فترى قلب المؤمن مَجليّاً مثلَ المرآة،ما يأتيه الشيطانُ من ناحية إلَّا أبصره. وأمَّا الذي يتتابع في الذنوب، فإنه كلَّما أذنب نُكِتتْ في قلبه نكتةٌ سوداءُ، حتى يسودَّ قلبهُ، فلا يُبْصرُ الشيطانَ من أين يأتيه».

وقبل أن تُحكِمَ الذنوبُ محاصرةَ القلب، وتعصبَ عيني البصيرة يحسنُ بالمؤمن أن يكبحَ جماح الشهوات، فيحاسبَ نفسه في الدنيا قبل أن يحاسبه الله في الآخرة، إذْ يستطيع في ميزان الدنيا أن يراجح كفَّة بكفة، وتُعييه المراجحة يوم الحساب. ولعلَّ أغربَ ما في هذا الضرب من الوعظ صدورُه عمَّن قال فيه الإمام الذهبيُّ: «له حسنات مغمورة في بحر ذنوبه» وهو الحجَّاج بن يوسف الثقفي، إذْ وعظ الناس موعظة حارَّة، أبكت مالك بن دينار. قال الحجاج[٣]:

«الرجلُ- وكلكم ذاك الرجلُ- رجلٌ خَطَم نَفسَه، وزمَّها، فقادها بخِطامها

(١) حاجتنا.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣١٧.
(٣) المصدر السابق ٩/ ١٢٣.

إلى طاعة الله، وكفَّها بزمامها عن معاصي الله. رحم الله امرءاً ردَّ نفسه، امرءاً اتَّهم نفسه، امرءاً اتخذ نفسه عدوَّه، امرءاً حاسب نفسه قبل أن يكون الحسابُ إلى غيره، امرءاً نظر إلى ميزانه، امرءاً نظر إلى حسابه، امرءاً وزن عملَه، امرءاً فكَّر فيما يقرأُ غداً في صحيفته...» فما زال يقولُ امرءاً امرءاً حتى بكى مالكُ بن دينار.

وعن القوس نفسِها نزع الحسنُ البصريُّ، لكنه شفعَ الموعظة بآيتين، أوفتا على الغاية في الإقناع بالمحاسبة، والإفزاع من المعاقبة، إذْ جعلتا رصيدَ الإنسان من الحسنات والسيئات قيداً مشدوداً إلى عنقه، لا سبيل إلى الفكاك منه، وسفراً سافر معه من الأرض إلى السماء ليشهد له أو عليه شهادةً محقَّقة موثَّقة، لا تحتاج إلى بيِّنة ممَّن ادَّعى، ولا إلى يمين ممَّن أنكر. قال الحسن البصري[1]:

«رحم الله امرءاً نظر فتفكَّر، وتفكَّر فاعتبر، واعتبر فأبصر، وأبصر فصبر. فقد أبصر قومٌ، ثم لم يصبروا، فتمكَّن الجزعُ من قلوبهم، فلم يُدْركوا ما طلبوا، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا.

يا بن آدم، اذكر قول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٣-١٤] عدل والله عليك مَنْ جعلك حسيبَ نفسك».

وبعد.. فإن كلَّ ما وقفناك عليه من أغراض الوعظ لم يُحطْ بآفاق الوعاظ ومراميهم الدينية والفكرية، وإنما ألمَّ بأشهرها وأسيرها، وربما كان المغفل أحبَّ إليك من المذكور. فإن كنت حريصاً على الإحصاء والاستقصاء فحسبُك أن تنتجع كتاباً واحداً من كتب التاريخ الجامعة من طبقة البداية والنهاية، أو كتاباً مفصلاً من كتب التراجم من طبقة سير أعلام النبلاء لتظفر بأكثر ممَّا تتصوَّر من أخبار الوعاظ وأقوالهم المأثورة[2].

---

(١) البيان والتبيين٣/ ١٣٢ وما بعد.

(٢) انظر الحكمة الخالدة لمسكويه ١٦٤-١٦٥، التذكرة الحمدونية١/ ١٥٦، البصائر والذخائر ٨/ ٣٥، مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٣٣٩، تاريخ الطبري ٧/ ٢٤٦، البيان والتبيين ٣/ ١٣٤، سير أعلام النبلاء ٩/ ١١٢، وغيرها كثير.

د- الرقائق والأدعية

١- تمهيد

في بداية هذا الباب حاولْنا- وما ندري أَوفَّقْنا أمْ أخفقْنا- أن نميِّزَ الرقائق من المواعظ على تداخل الطائفتين، وانبثاقهما من نوازعَ نفسية متشابهة، وتطلُّعهما إلى غايات دينية متماثلة، واشتراكهما في كلِّ العناصر الفكرية والفنية واللغوية التي يُصْنعُ منها الأدب الرفيع، والتوجيهات التربوية، والقيم الأخلاقية.

كنا قد زعمنا أن الرقائق بعضُ المواعظ إلا أنها أسرعُ تغلغلاً في النفوس، وألينُ تسلُّلاً إلى القلوب، وأنجعُ معالجةً للأشجان، لأنها ألطفُ من المواعظ وأرهف، وأنعمُ وقعاً وأرخم، إذْ صُبَّت معانيها في صور إنسانية جميلة القسمات، وبُثَّت في تضاعيفها مشاعرُ دينية نبيلة المقاصد، وجُعلت حظوظُها من العواطف فوق حظوظها من الأفكار، وحُرِصَ في صياغتها على الرشاقة والعذوبة، ومجانبةِ الغريب، فمالت إليها الأسماعُ، واعتلقتها الأذهان.

ونضيفُ إلى ما زعمنا هناك زعماً آخر، وهو أن الأدعيةَ شقائقُ الرقائق لصدورها عن المصدر الإيماني نفسه، واشتمالها على القيم الأخلاقية عينها. فهي تصدُر عن الخوف والندم، وعن الرجاء والأمل، وترمي إلى الاستغفار، وتعلن التوبة، وتلتمسُ الرحمة، وترجو الفوز برضوان الله والنجاة من سخطه، ويصوغها التأثُّم المؤرِّق، والإحساسُ بالتقصير، والطمعُ في الثواب يومَ الحساب، صياغةً عاطفية، يُضَمِّخها الضعفُ الإنسانيُّ المتواضع، المعترفُ بالقدرة الإلهية القاهرة. ولمَّا كانت الرقائق البناتِ الطيِّعات للمواعظ أو الأخوات الغريرات لهن، فمن العبث أن يُنْسبن إلى آباء غير آباء المواعظ، وأرباب غير أربابهن.

ومن التكرار المُملّ أن نعيد ما سردنا من أسماء الوعَّاظ. وكلُّ ما يمكن أو يحسن قولهُ ههنا على سبيل التخمين لا اليقين أنَّ الوعَّاظ متى غلبت قلوبُهم عقولَهم، وطَغَتْ مشاعرهم على أفكارهم ترقرقت من ألسنتهم الرقائق ترقرق الأمواه الصافية من أفواه الينابيع. وممَّا يدلُّك على أن ما زعمنا لا يخلو من صواب أن عُتاةَ الوُلاة قد يطوفُ بهم طائفٌ إنساني، فإذا القائد العتيُّ زاهدٌ

تقيٌّ، ينضو عنه لأمة الحرب، ويرتدي مسوح النسك، ويجري لسانه برقيقة رشيقة كالتي جرى بها لسان الحجَّاج بن يوسف الثقفي حينما قال[١]:

«أمَّا بعد، فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كُتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يغرَّنَّكم شاهدُ الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طولَ الأمل بقصر الأجل».

ومتى طاف هذا الطائف الإنساني الرحماني بالقلب القاسي لانَ، وأَلانَ، وفجَّر الماءَ من الصخر، وأنطق لسانَ الحجاج-على جبروته- بما يُسْكِر قلب الحسن البصري الرهيف ويُشجيه، ويزيده رهافةً ولطافةً، وحناناً وعطفاً. قال ابن كثير[١]: «عن الحسن البصريِّ قال: وَقَذَتْني كلمةٌ سمعتها من الحجاج. سمعته يقول: «إنَّ امرءاً ذهبت ساعةٌ من عمره في غير ما خُلِق له لحريٌّ أن تطولَ عليها حسرتُه إلى يوم القيامة».

٢- أغراض الرقائق ومعانيها

يشقُّ على الدارس أن يسلك الرقائق في موضوعات ذواتِ عنوانات ما لم ينثرْ ما ائتلف منها، فأكثرها موجزٌ غاية الإيجاز، تستوعبه عبارة أو عبارتان، وأقلُّها يطولُ بعضَ الطول، فإذا طالت الرقيقةُ، فأصبحت فقرة تعدَّدت معانيها، وتحوَّلت إلى سُبُحات وخواطر، يُناقل صاحبها بين الأفكار بلا ضابط، حتى إن الفقرة الواحدة تطيرُ بك من أفق إلى أفق: فعبارةٌ تعظُك بمن رحل ولم يعد، وثانيةٌ تنصح لك بالزهادة، وثالثة تعرض عليك صروفَ الدهر، ورابعة تحقّر التهافت على المال، وخامسة تحاولُ أن تقنعك بالعفاف والتبلُّغ بالكفاف. قال عبد الله بن شدَّاد [ت: ٨١هـ] في رقيقة من هذا النمط[٢]:

«أرى داعي الموت لا يُقْلع، وأرى أنَّ مَنْ مضى لا يرجع. لا تزهدَنَّ في معروف، فإن الدهر ذو صروف. كم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالبٍ أصبح مطلوباً إليه. والزمانُ ذو ألوان، ومَنْ يصحب الزمان يَرَ الهوان. وإن غُلِبْتَ يوماً على المال، فلا تُغْلَبنَّ على الحيلة على حال، وكنْ أحسنَ ما تكون في الظاهر حالاً، أقلَّ ما تكون في الباطن مالاً».

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٢٣. وقذتني: أثَّرت فيّ تأثيراً شديداً.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ١١٣.

ولما كان ذلك كذلك، فلا ترهق نفسك بالتبويب، وتلقَّ الرقائق بلا نظام. ولا تحاول أن تسلكها في سلك، وأجل بينها قلبك كما تجيل طرفك بين أزهار متعددة الأشكال، مفوفة الألوان، متنوعة الأشذاء. واقنع مما تقرأ بالومضة التي تسطع سطوع البرق، والفكرة التي تقتدح شرارة التدبر، والكسرة التي تتبلغ بها ولا تشبع، والنغبة التي تبلُّ الفم، ولا تذهب الظمأ. قال الحسن البصري في القناعة التي تريح من الشقاء في سبيل الإثراء[١]:

«لا تجاهدْ في الطلب جهاد المغالب، ولا تتَّكلْ على القدر اتِّكال المستسلم، فإن ابتغاءَ الفضل من السنَّة والإجمال في الطلب من العِفَّة. وليست العفة بدافعة رزقاً، ولا الحرص بجالب فضلاً. الرزق مقسومٌ، والأجل محتوم، وفي الحرص اكتساب المآثم».

وقال في تربية النفوس وتهذيبها[٢]:

«اقْذَعوا[٣] هذه النفوسَ، فإنها طلعة[٤]. واعصوها، فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شرٍّ غاية. وحادثوها[٥]بالذكر، فإنها سريعةُ الدثور»[٦].

وقال في حثِّ الإنسان على الاستفادة والإفادة بكِّل ساعة من ساعات الحياة: «يا بنَ آدم، نهارُك ضيفُك، فأحسن إليه. فإنك إن أحسنت إليه ارتحلَ بحمدك، وإن أسأتَ إليه ارتحلَ بذمِّك. وكذلك ليلُك».

ومن رقائق الفضل بن عيسى الرقاشي التي تضمنت التدبر فيما أبدع الله من آيات تدل على قدرته، وتنطق بحكمته، قوله[٧]:

«سل الأرض فقل: مَنْ شقَّ أنهارَكِ، وغرس أشجارَكِ، وجنى ثمارَك؟ فإن لم تُجبْك حواراً، أجابتك اعتباراً».

وربما استلهم أصحاب الرقائق أفكارهم من التوراة والإنجيل وحِكم

(١) البصائر والذخائر ٥/ ٢٢٧.
(٢) البيان والتبيين١/ ٢٩٧.
(٣) انهوا.
(٤) تتطلّع إلى كل شيء.
(٥) اجلوها واشحذوها.
(٦) الدّروس، يريد: سريعة النسيان.
(٧) المصدر السابق ١/ ٣٠٨.

الأقدمين، ثم صاغوها ببيانهم العربي المشرق صياغة تشفُّ عمَّا في نفوسهم من تقشُّف وتعفُّف، وما في عقولهم من تدبُّر وتفكُّر؛ قال وهبُ بن منبه[١]:

«مكتوبٌ في التوراة، يا بن آدم، لا تسأل الناس، وإن كنت لا بدّ فاعلاً، فسلْ معادنَ الخير ترجعْ مغبوطاً محسوداً. ولا تسألْ معادن الشرِّ، فترجع مغلوباً محسوراً».

وروى الجاحظ عن الشعبي قوله[٢]:

«قال عيسى بنُ مريم عليه السلام: البرُّ ثلاثة: المنطقُ، والنظر، والصمتُ. فمن كان منطقُه في غير ذكر فقد لغا، ومن كان نظرهُ في غير اعتبارٍ فقد سَهَا، ومن كان صمتُه في غير تفكُّر فقد لها».

ومن أرقِّ الرقائق وأرقاها، وأجملها وأشجاها فقراتٌ من النثر، ومقطَّعات من الشعر رواها ابن شهاب الزهريّ [ت: ١٢٤هـ] عن زين العابدين علي بن الحسين [ت: ٩٩هـ]. وفي هذه الرقائق يتعاقبُ المنثورُ والمنظوم حتى يتداخلا ويتكاملا، وينجمُ عن تداخُلِهما وتكاملِهما ضربٌ من الأدب الديني الإنساني، أو نمط من التوجيه التربوي، قلَّما يقعُ القارئُ على ما يضارعه في التأمُّل الفكري، والسموِّ الروحي، والجمال الفني، وصدق المشاعر، ونبل المقاصد، والزهد في الرغاب، والتجرُّد للحق، والإخلاص لله.

ويحسنُ بنا أن نقفَك على شذرات من أخباره وأقواله قبل أن نفقَكَ على ما نظم ونثر من رقائق. فقد روى الإمامُ الذهبيُّ[٣] من أفعاله وأقواله ما يسوِّغ عندك هذه الرقائق، وينفي عنها الشكَّ في نسبتها إليه، لأن كلَّ ما فيها يوافق ما عُرِفَ به، ويوافق ما أُثر عنه من أخلاق النبوة التي نشأ في كنفها القدسي. من هذه الأخبار والأقوال بعد إسقاط الأسانيد:

«كان عليُّ بن الحسين ثقة مأموناً كثير الحديث، عالياً رفيعاً ورعاً. قال الزهري: كان علي بن الحسين من أفضل أهل بيته، وأحسنهم طاعة، وأحبِّهم إلى مروان، وإلى عبد الملك. قيل لابن المسيِّب: ما رأيتُ أورعَ من فلان.

---

(١) الآمل والمأمول/ ٦٨.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٩٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٨٦-٤٠١.

قال: هل رأيتَ عليَّ بن الحسين؟ قال: لا. قال: ما رأيتُ أورعَ منه. إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدةٌ. فقيل له: فقال: أتدرون بين يدي مَنْ أقوم؟ ومن أناجي؟

كان يحمل الخبز بالليل على ظهره، يتَّبع به المساكين في الظلمة.

لما مات عليُّ بن الحسين وجدوا بظهره أثراً ممَّا كان ينقل الجُرْبَ- الأكياس- بالليل إلى منازل الأرامل».

وإليك طائفة من رقائقه المنثورة والمنظومة كما رواها ابن شهاب الزهري عن علي بن الحسين[١]:

«يا نفسُ حتَّام إلى الدنيا غرورُك؟ وإلى عمارتها ركونُك؟ أما اعتبرتِ بمن مَضَى من أسلافك؟ ومن وارته الأرضُ من أُلَّافِك؟ ومن فُجِعْتِ به من إخوانك؟ ونقل إلى البلى من أقرانك؟

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها ... محاسنُهُم فيها بوالٍ دواثرُ
خلتْ دورُهم منها، وأقوتْ عِراصُهم ... وساقتْهُم نحو المنايا المقادِرُ
وخلَّوا عن الدنيا، وما جمعوا لها ... وضمَّتْهمُ تحت التراب الحفائرُ

كم تخرَّمتْ أيدي المنون من قرون بعد قرون؟ وكم غيَّرت الأرضُ ببلاها؟ وغيبت في ثراها، ممَّن عاشرتَ من صنوف الناس، وشيَّعْتَهم إلى الأرماس.

وأنتَ على الدنيا مكبٌّ منافسٌ ... لخُطَّائها فيها حريصٌ مكاثرُ
على خطر تمسي، وتصبح لاهياً ... أتدري بماذا-لو عقلتَ-تخاطر؟
وإن امرءاً يسعى لدنياه دائباً ... ويذهل عن أخراه- لاشكَّ- خاسر

فحتَّام على الدنيا إقبالك؟ وبشهواتها اشتغالُك؟ وقد وَخَطَك القتير[٢]، وأتاك النذير، وأنت عمَّا يرادُ بك ساهٍ، وبلذة نومك لاهٍ.

وفي ذكر هَوْل الموت والقبر والبلى ... عن اللهو واللذات للمرء زاجرُ
أبعد اقتراب الأربعين تربُّصٌ ... وشيْبُ قذالٍ منذرٌ لك كاسر
كأنك تعنى بالذي هو صائرٌ ... لنفسك عَمْداً، أو عن الرشد جائر

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ٢٤٩ وما بعد.

(٢) أسرع إليك أول الشيب.

انظر إلى الأمم الماضية، والملوك الفانية، أفنتهم الأيامُ، ووافاهم الحِمامُ، فامحت من الدنيا آثارهم، وبقيت أخبارهم.

وأضحَوْا رميماً في التراب، وعُطِّلتْ مجالسُ منهم أقفرتْ، ومَعاصِرُ[١]
وحلُّوا بدارٍ، لا تزاورَ بينهم وأنَّى لسكَّان القبور تزاور؟
فما إنْ ترى إلا جُثى[٢] قد ثووْا بها مسطَّحةً، تسفي عليها الأعاصر

وهل يحرصُ عليها لبيب؟ أو يُسَرُّ بها أريب؟ وهو على ثقةٍ من فنائها، وغيرُ طامع في بقائها. أم كيف تنامُ عينا مَنْ يخشى البيات[٣]؟ وتسكن نفسُ مَنْ يتوقَّع الممات؟

ألا، لا، ولكنَّا تُغَرُّ نفوسُنا وتشغلنا اللذات عما نحاذر
وكيف يلذّ العيشَ من هو موقنٌ بموقف عدل، يوم تُبلى السرائر
كأنَّا نرى أن لا نشوزَ، وأنَّنا سُدىً ما لنا بعد المماتِ مصائرُ

وما عسى أن ينال صاحبُ الدنيا من لذَّتها؟ ويتمتع من بهجتها، مع صنوف عجائبها، وكثرةِ تعبه في طلبها، وما يكابدُ من أسقامها، وأوصابها وآلامها.

وما قد ترى في كلِّ يوم وليلة يروحُ علينا صَرفُها ويباكرُ
تعاورنا[٤] آفاتُها وهمومُها وكم قد ترى يبقى لها المتعاور؟
فلا هو مغبوطٌ بدنياه آمنٌ ولا هو عن بطلانها النفسَ قاصر»

مَنْ يمضِ في قراءة ما نقل الزهريُّ عن زين العابدين من رقائق يجدْها كلَّها- وعِدَّتُها ثماني عشرة فقرة، شُفعت كلُّ فقرة منها بثلاثة أبيات- متقاربة المعاني والعواطف والصور، كأن خيوطها غُزلت بِمغزلٍ واحد، ونُسجت بِمنْوَلٍ واحد، غزلت بمغزل الحزن، ونسجت بمِنْول الموت، ويجدْ أن ناثر فقراتها وناظم أبياتها لا يكاد يبارح الأَكفان والجنائز والقبور حتى يعود مرة أخرى إليها، فيغرق في هواجسه المتشائمة يُبْدئ ويعيد، فلا يتغيَّر من رقائقه إلَّا الألفاظُ والصور. فما تعليلُ هذا التكرار الراتب؟

---

(١) ملاجئ، حصون.
(٢) ج جثوة: القبر.
(٣) المصاب في الليل.
(٤) تتعاقب علينا.

يغلب على الظنِّ أن الفواجع المتلاحقةَ التي نزلت بأهل البيت تجمَّعت كلُّها في قلب عليِّ بن الحسين، فكره الدنيا وما فيها، ووقف رقائقه كلَّها أو جلَّها على موضوع واحد، وهو الاعتبارُ بالموت والشوق إلى الآخرة، والسخر من المتهافتين على الشهوات الزائلة، المخدوعين بالزينة الحائلة.

أضِفْ إلى ذلك أن زين العابدين كان مريضاً يوم كربلاء، لا يقوى على القتال للدفاع عن أبيه، وأن مرضه في هذا اليوم التاريخي ضاعفَ حزنه، فلازمه الأسى طوالَ حياته، وكان يعبِّر عن هذا الإحساس الموجع بقوله: «فَقْدُ الأحبةِ غربة». وربّما كانت غربته تلك من العوامل التي حملته على أن يقضي حياته كلَّها في العبادة، وأن يصبغ عبادته: صلاتَها وصيامَها وحجَّها بالخوف المروِّع. قال الإمام الذهبي:

«.... وكان يسمى زين العابدين لعبادته..... وقال أبو جعفر: كان أبي يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، فلما احتُضِر بكى، فقلت: يا أبت ما يُبكيك؟ قال: يا بني، إنه إذا كان يوم القيامة لم يبق مَلَكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل إلا كان لله فيه المشيئة، إنْ شاء عذَّبه، وإن شاء غفر له....» وقال الذهبي أيضاً: «...حجَّ عليُّ بن الحسين، فلما لبَّى غُشِيَ عليه، وسقط من راحلته، فلم يزل بعضُ ذلك به حتى قضى حجَّه».

٣- الأدعية

تستطيع أن تُلحق بالرقائق ضرباً آخر من ضروب الأدب الديني، شاع في العصر الأموي، وأسهم في صنعه الملوكُ والسوقةُ، والرعاة والرعيةُ، وعبَّروا به عن مدى تعلُّقهم بالفكر الإسلاميّ الذي يربط الحياة الدنيا بالآخرة، والأرضَ بالسماء، ويشدُّ الخلائق إلى الخالق، ليظلَّ الإنسان على صلة لا تنقطعُ بعقيدته في كلِّ ما يقول وما يفعل.

وفحوى الدعاء، عند التحقيق، استغاثةُ العاجز بالقادر، واستعانةُ العبد بالمعبود، وإقرارُ الداعي - ولو كان ملكاً من الملوك ذوي الجبروت - بأن المدعُوَّ يملكُ من القدرة ما لا يملكُ، فيلوذُ به معترفاً للقوة الإلهية بالضعف البشري. وأشيعُ المعاني والمشاعر في أدعية العصر الأموي الاعترافُ بالذنوب، ما اقترفَ الداعي منها وما لم يَقترف، وتكرارُ الاستغفار ما صدر منه عن آثم

ارتكبَ، أو عن حائمٍ حول الحمى همَّ ولم يرتكب، والتَّضرعُ المقرون بالتواضع لله، والتجرُّد من قشور التفاخر، والعودةُ إلى الجوهر الإنساني، واحتقارُ ما في الدنيا من متع فانية، وإكبارُ ما في الآخرة من نعيم دائم، والاستعاذةُ من المعاصي لأنها من عمل الشيطان وتزيينه وإغوائه.

وربما صدر الدعاء عن عظماء الخلفاء، وعن عُتاة الولاة. حينئذٍ يقرُّ الداعي إقرار العبد للسيِّد بعظمة الله، وينكر مظاهرَ العظمة البشرية، ويصدُر في دعائه عن الإيمان بأن السعادةَ والشقاء قدرٌ وقضاء، لا يستطيع أقوى الملوك أن يمحو منهما ما كُتِب، أو أن يكتب ما لم يُكتب، فإذا هو يسترضي ربَّه بالضراعة، ويتقرَّب إليه بالطاعة، فتحسُّ حينئذٍ أن في هذا اللون من الأدب تكذيباً للمدح والرثاء، والفخر والهجاءِ، وعودةً بالإنسان إلى الفطرة، بلا مجد مُكتسَب، ولا ألقاب مُفتراة، فتزدري مدائحَ المتزلفين، ونقائض المتناكرين، ومفاخر المتكبرين، وتجدُ السكينة والطمأنينة في أفياء الدعاء.

حينما حضرت الوفاةُ معاويةَ بنَ أبي سفيان [سنة: ٦٠هـ] أحسَّ أن كلَّ ما قاتل في سبيل الظفر به خارجٌ من يديه، فودَّع الدنيا بالاعتراف، وقرنَ الاعتراف بالاستغفار، وفارق الحياة بهذه الدعوات:

«اللهمَّ أَقِلِ العثرة، واعفُ عن الزلَّة، وتجاوزْ بحلمِك عن جهل مَنْ لم يَرْجُ غيرك. فإنك واسعُ المغفرة، ليس لذي خطيئةٍ من خطيئته مهربٌ إلّا إليك»[(١)].

ودعاءُ الحسين قبل معركة كربلاء يُعَدُّ أصدقَ ما يرفعُه العبد إلى ربِّه في وقت الكرْب لدفع البلاء، وكشف الغمّ، إذْ بدأه بالتذلُّل والتوسُّل، والثقة والتوكُّل، وشفع تضرُّعه بالخوف من الضعف، ورجا الله أن يُجنِّبه شماتة الأعداء بعدما خذله أنصارُه، ثم حمده على ما أولاه من نعم، ودفع عنه من نقم. وها هوذا يلوذ به كما تعوّد أن يلوذ في الشدائد: قال ابن كثير:

«لما صبَّح الجيشُ الذي بعثه ابنُ زياد الحسينَ رفع يديه، فقال[(٢)]: اللهم أنت ثقتي في كلِّ كرب، ورجائي في كلِّ شدة، وأنت لي من كلِّ أمر نزل ثقةٌ وعدَّة. فكم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلُّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديقُ،

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٤٢.

(٢) مختصر تاريخ دمشق٧/ ١٤٦، والبداية والنهاية ٨/ ١٦٩.

ويشمت فيه العدوُّ، فأنزلتُه بك، وشكوتُه إليك، رغبةً فيه إليك عمَّن سواك، ففرَّجته وكشفته وكفيتنيه. فأنت وليُّ كل نعمة، وصاحب كلِّ حسنة، ومُنتهى كلِّ غاية».

ومنْ يُصْغِ إلى أدعية الملوك، وهم يُحْتَضَرون، يدْرك أن الموت يكشفُ عن نفوسهم سرابيل المجد، ويبصِّرهم بالحقائق عارية، فينطقهم بالندم على ما فرطوا في جنب الله.

قال المدائني[١]: لَمَّا أيقن عبد الملك بالموت قال: «والله لوددت أني كنت منذُ ولدت إلى يومي هذا حمَّالاً». وإذا صحّ ما روى المدائني عنه فبعضُ ما دعا به عبد الملك يسوّغ ما زعمنا، إذ كان ينزع عن قوس الضعف والضراعة، والتوْبة والاستغفار. فقد روى ابن كثير أن عبد الملك بن مروان كان يدعو فيقول:

«ياربِّ، إنَّ ذنوبي عظيمةٌ، وإن قليلَ عفوك أعظمُ منها، اللهمَّ، فامحُ بقليل عفوك عظيمَ ذنوبي»[٢].

قد تقول: إن في حياة عبد الملك ما يسوِّغ هذا الدعاءَ، لأن تفويضَه أمورَ الرعية إلى الحجَّاج بن يوسف حمَّله نصيباً من الأوزار، فندم واستغفر. فما تقولُ فيما أُثِرَ عن عمرَ بن عبد العزيز من إقرار واستغفار، وهو من هو في الورع والتقوى، والزهادة والعبادة، والحكم بالسوية بين الرعية؟

إنَّ ما كان يدعو به عمرُ لا يعني أنه كان يَزِرُ فيستغفر، وإنَّما يعني أنه، لورعه وتقواه، كانت الصغائرُ عند غيره كبائرَ عنده، وأنه لإحساسه بثقل التبعة كان دائمَ القلق، فيداوي القلقَ بالدعاء، كأنْ يقول[٣]:

«اللهمَّ، إن رجالاً أطاعوك فيما أمَرْتهم، وانتَهوا عمَّا نَهَيتهم. اللهمَّ، وإن توفيقَك إيَّاهم كان قبل طاعتهم إيَّاك. اللهمَ، إن عمرَ ليس بأهلٍ أن تنالَه رحمتُك، ولكنَّ رحمتَك أهلٌ أن تنالَ عمر».

إنَّ صدقَ الدعاء لا يُقاس بكثرة الذنوب، بل بصدق الداعي، ومهما أُوتي

(١) تاريخ الخلفاء/ ٢٠٥.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٦٧.
(٣) المصدر السابق ٩/ ٢٠٣.

عمرُ بن عبد العزيز من عمق الدعاء وصدق الرجاء، وحرارة التوسُّل، والخشوع في الصلاة، فإنه لم يُؤتَ إلَّا بعضَ العمق والصدق اللذين انطوى عليهما الحديث التالي: عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ كان يقومُ من الليل حتى تتفطَّرَ قدماه. فقلت له: لِم تصنع هذا يا رسولَ الله، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عبداً شكوراً؟».

وممَّا يرجِّح ما زعمنا أن عمر لم يكن يرجو في دعائه شيئاً من عرض الدنيا وزينتها، وإنما كان يرجو رحمة الله ورضوانه في الدنيا وفي الآخرة. وأنه إذا لم يفز بالسعادة لجدارته بها، فليفزْ بها لأن كرمَ الله يسع من يستحقه ومن لا يستحقه. قال ابن عساكر[1]:

«كان عمر بن عبد العزيز يدعو في دُبُرِ صلاته: اللهم، إنك لم تُشهدني خَلْقي، ولم تُؤامرْني في نفسي، لكنك خَلَقْتني لما شئتَ من ذلك. فإن كنتَ خَلَقْتني في سابق علمك سعيداً، فاستعملني في السعادة، وإن كنت خلقتني في سابق علمك شقيّاً، فحوِّلني من الشقاء إلى السعادة، فإنك تمحو ما تشاءُ وتثبتُ، وعندك أمُّ الكتاب. اللهم، وإنْ لم أكن أهلاً أن تبلغني رحمتك، فإنَّ رحمتك أهلٌ أن تبلغني، فبلِّغنيها برحمتك. إنك على كلِّ شيء قدير».

إنَّ استعراض ما كان يدعو به التابعون والسلفُ الصالح يُفضي بك إلى دليل آخر يُثبت صحة ما زعمنا، وهو أنَّ حرارة الدعاء تنجم عن حرارة الإيمان، لا عن كثرة الذنوب، فإن كثرة الذنوب تُقسِّي القلوب، وتجرِّئ أصحابها على الكنود، ونقض العهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ٥/١٣]. وهؤلاء لا يُرجى منهم استغفار ولا توبة. وعلى هذا الأساس فإن أبرع الناس في رقرقة الرقائق، وبث المشاعر الإنسانية في تضاعيفها هم أبرع الناس في مخاطبة السماء، ونفح النفوس الشفيفة بالأدعية الرهيفة. ومنهم علي بن الحسين الذي أثرت عنه أدعية تكاد تذوب في أفواه من يرددونها، وتذيب قلوب من يسمعونها، إلى جانب ما فيها من شرف المعاني ونبل المقاصد. من أدعيته التي رواها ابن كثير[2]:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٨/ ٢٦٠.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ١١٣.

«اللهم، إني أعوذ بك أن تحسِّنَ في لوامع العيون علانيتي، وتقبِّح في خَفِيَّات الغيوب سريرتي. اللهمَّ، كما أسأتُ وأحسنتَ إليَّ، فإذا عدتُ فعدْ إليَّ. اللهم، ارزقني مواساةَ من قترتَ عليه رزقك بما وسَّعت عليَّ من فَضْلك».

وحدث الإمام الذهبي عن طاووس، قال[1]:

«سمعت علي بن الحسين، وهو ساجد في الحجر يقول: عُبَيْدُك بِفِنائك، مسكينُك بِفِنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بِفِنائك. قال: فوالله ما دعوتُ بها في كَرْب قطُّ إلّا كشف عني».

هـ- من سمات القصص والمواعظ والرقائق والأدعية

تمهيد

أشرنا قبلُ إلى أن القصص والمواعظ والرقائق والأدعية فروعٌ من أيكة واحدة، وهي: أيكةُ النثر الديني التوجيهيّ التربويّ. ونشير الآن إلى أن للفصل بين القصة وحدها من جانب وثلاثة الفروع الأخرى من جانب آخر ما يُسوِّغه من الناحية الأدبية لا من الناحية الفكرية. إن للقصة عناصرَ ومقوّمات لا تتوافر في أخواتها الأُخْريات، وهي البيئة والشخوصُ والأحداث والحبكةُ المشوِّقة والصراعُ النفسي والحوار، فهي إذا وافقت المواعظَ والرقائق والأدعية في المضمون فارقتها في البنية. ومع هذه المفارقة آثرنا التعميمَ على التخصيص بعدما ثبت لنا أن حظوظَ هذه الأجناس من التشابه فوق حظِّها من الاختلاف. فما أبرزُ السمات الفكرية والفنية التي تشترك فيها هذه الأجناس؟

١- الاقتباس من الإسرائيليات

إن أهمَّ السمات الفكرية التي تصطبغ بصبغتها أربعة الأجناس الأدبية السابقة أن الفكر الديني يتجلَّى فيها بصورة بالغة القوة والوضوح بأبعاده التوجيهية لا بتشريعه المفصل وأحكامه الفقهية، فأنت تجد فيها روح الدين الداعية إلى الإيمان، ولا تجد ما حلّل وحرّم، وتقع فيها على خلق المسلم وسلوكه، ولا تقع على الفرض والواجب والسنة والبدعة. فهي بهذه الصبغة تُعَدُّ

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٩٠.

رديفاً للدين، تأخذ منه، وتعود عليه بما أخذت، وتصدر عنه، ثم تسير في ركابه تابعة لا رائدة.

وفكرُها الديني- ولاسيّما ما يتجلى في القصص- ليس إسلامياً خالصاً متمحّضاً للكتاب والسنة، وإنما فيه كثير من الأفكار والأخبار والقصص المتحدرة من التوراة والإنجيل وغيرهما من أسفار الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى، وذلك يُثبتُ ما نزعم. فلو أرسلت طرفك في «مختصر تاريخ دمشق» لعاد إليك بكثير من القصص التي ذكرنا بعضها قبلُ، ونضيف إلى ما ذكرنا: قصة إلياس وملك بعلبك[١]، وقصة موسى وبني إسرائيل في سيناء[٢]، وقصة إبليس وامرأة أيوب[٣]، وقصة يوسف في السجن[٤]، وقصة إرميا وبني إسرائيل[٥].

وأهمُّ ما يميز هذه القصص التي تطالعك في كتب التاريخ المفصلة عامّةً لا فيما كتب ابن عساكر خاصَّةً، اتفاقها مع القرآن الكريم فيما أجمل، وافتراقها عنه فيما فصَّلت، فكأن رُواتها من القُصَّاص المسلمين وعلى رأسهم وهبُ بن منبِّه، والحسنُ البصري، ومجاهدُ بن جبر حرصوا على أن يفصِّلوا ليجذبوا إليهم أسماع العامة وقلوبها بأخبار الأنبياء والصديقين، فنقلوا ما نقلوا عن أهل الكتاب، ثم انتقل بعضُ ما نقلوا إلى كتب المفسرين والمؤرخين، فخالط التراث الإسلاميَّ، وغدا بعضاً منه.

٢- التوهج العاطفي

ثانية السمات في هذا الأدب الديني التوجيهيّ توهُّجُ العواطف فيما قصَّ القُصَّاص، ووعظ الوُعَّاظ، وفيما رقرقرت الرقائق، وتضرَّعت الأدعية. فقد كانت هذه العواطفُ على اختلاف من تخلَّجت في صدورهم مؤتلفة، وعلى تعدُّد من أحسوا بها متَّحدة. مصدرُها عجزُ الإنسان وضعفُه، وسخطُه على الانغماس في الشهوات، وقبولُه الاستسلام للموت، وإيمانُه بقوة القضاء والقدر، وتبرُّمه

(١) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٢٥.
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن ١/ ٢٣٦.
(٣) مختصر تاريخ دمشق٥/ ١٠٨.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٣٨.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٤٠.

بالسرف والترف، وعطفُه على الضعفاء والفقراء، وشوقُه إلى الآخرة، وأملُه بالفوز يوم القيامة، وهربُه من الخلائق إلى الخالق، مصدر كل خير. سمع طاووس بن كيسانَ رجلاً تعلَّق بأستار بيتِ الله الحرام، وراح يدعو، فيقول[١]:

«اللهم بك أعوذُ، وبك ألوذُ، اللهم اجعل لي في اللهف إلى جودك والرضى بضمانك مندوحةً عن منع الباخلين،وغنىً عمَّا في أيدي المستأثرين. اللهمّ فَرَجَكَ القريب. ومعروفك القديم. وعادتك الحسنة».

وحينما حضرت الوفاةُ عمرَ بنَ عبد العزيز دعا ربَّه، فقال[٢]: «اللهم رضِّني بقضائك، وبارِكْ لي في قدرك، حتى لا أحبَّ لما عجَّلتَ تأخيراً، ولا لما أخرت تعجيلاً».

وعن قوس الموت نزع الحسنُ البصريُّ في موعظة له، فغمَّه الحزنُ، وغمره الخوفُ، وروَّعه تصوُّر النار، فقال[٣]:

«ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا وفضحها. ولا والله ما وجد ذو لبٍّ فيها فرحاً، فإياكم وهذه السُّبُلَ المتفرقة التي جماعُها الضلالةُ، وميعادُها النار».

وفي رقيقة واحدة من رقائق زين العابدين الثماني عشرة يترقرق من التوجّع والتفجُّع، والخضوع والخشوع، أضعافُ ما يترقرق في قصيدة رثاء:

«بكى على ما سلف من خطاياه، وتحسّر على ما خلف من دنياه، حين لا ينفعه الاستعبارُ، ولا يُنجيه الاعتذار، عند هول المنية، ونزول البلية»[٤].

٣- التعبير بالتصوير

لم يتعمَّدْ أربابُ القصّ والوعظ التعبيرَ عن أفكارهم المجرَّدة بالصور الحسيّة. إذْ كانت عنايتُهم بإثارة المشاعر فوق عنايتهم بالرسم الفني، غيرَ أن اللغة العربية الشاعرة تصويريةٌ بالفطرة، لا يستطيعُ الشاعر أو الكاتب أو الخطيب أيَّاً كان غرضُه أن ينضوَ عن مناكب المعاني ما ألبستْها الألفاظُ من صور.

---

(١) المصدر السابق ٢٣/ ٣٦٨.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٣.

(٣) الحكمة الخالدة/ ١٦٤-١٦٥.

(٤) مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ٢٤٩ وما بعد.

في موعظة من المواعظ الزاهدة في الثراء، وصف الحسنُ البصريُّ فقر الأنبياء، فقال[١]:

«فأمّا محمد فشدَّ الحجر على بطنه من الجوع، وأمّا موسى الكليمُ فَرُئيَ خضرةُ البقل من صِفاق بطنه[٢]... وصاحبُ الروح والكلمة كان يقول: أدمي الجوعُ، وشعاري الخوفُ، ولباسي الصوف. ودابتي رِجلي، وسراجي بالليل القمر، وصلائي في الشتاء مشارقُ الشمس».

وزينُ العابدين صوَّر الدنيا امرأة ماكرة غادرة، أدمنت الكيدَ والصيدَ، وأتقنت الإغراء والإغواء، فهي تنصب للناس الفخاخ، وتتزين بالشهوات، وتتبرَّج بالمباهج لتوقعهم في حبائلها:

«فالبدارَ البدارَ، والحذارَ الحذارَ، من الدنيا ومكائدها، وما نصبتْ لك من مصائدها، وتحلَّتْ لك من زينتها، وأظهرت لك من بهجتها»[٣].

٤- صقل الطبع بالصنعة

مع أن هذه الأنماط الأدبية بناتُ الفطرة النقية، فقد ازَّيَّنت طائفةٌ من نصوصها - ولا سيّما الرقائق والأدعية- بشيء من محسنات البديع، لكي تضيف إلى نبل المعاني ورهافة العواطف أناقةَ الصياغة، وحلاوةَ الإيقاع، ورشاقة الألفاظ، ولكي تجتذبَ إليها الأسماعَ الطروب كما تجتذب القلوب الخُشَّع. وأشيعُ ما شاع فيها من البديع السجعُ، لأن السجع يقرِّبها من الشعر، ويرسّخها في الذاكرة. قال زين العابدين في إحدى رقائقه[٤]:

«كيف أمنت هذه الحالة، وأنت صائرٌ إليها لا محالة؟ أم كيف تهنأُ بحياتك، وهي مطيَّتك إلى مماتك؟ أم كيف تُسيغ طعامَكَ، وأنت منتظر حِمامك؟».

وإلى جانب السجع تجدُ المطابقة والمقابلة، وبهما تتحوَّل الصنعة البديعية إلى وسيلة فكرية تساعدُ الواعظ على توليد المعاني، وسَوْقها على شكل

(١) التذكرة الحمدونية ١/ ١٥٦.
(٢) جلد بطنه أو ما بين الجلد والمصران.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ٢٤٩ وما بعد.
(٤) المصدر السابق ١٧/ ٢٤٩ وما بعد.

معادلات، ومنها قولُ سلمة بن دينار[١]: «وما الدنيا؟ وما إبليسُ؟ أمَّا ما مضى منها فحلم، وأمَّا ما بقي فأماني، وأمَّا إبليسُ فلقد أُطيع فما نفع، ولقد عُصي فما ضرّ». وقولُ الحسن البصري[٢]: «خذوا صفاءَ الدنيا، وذروا كدرَها، فليس الصفوُ ما عاد كدراً، ولا الكدرُ ما عاد صفواً... ظهر الجفاءُ، وقلّ العلماءُ، وعفت السنة، وعلت البدعة... ليس بك غنىً عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقرُ».

(١) المصدر السابق١٠/ ٧٥.

(٢) البيان والتبيين٣/ ١٣٢ وما بعد.